علاء عبد الباقي

قصص

ألف سلمة صعودًا

دار ليلى
كيان كورب
للنشر والتوزيع

ألف سلمة صعودًا

علاء عبد الباقي

كيان كورب للنشر والتوزيع
دار ليلى

الكتاب:
ألف سلمة صعودًا
المؤلف:
علاء عبد الباقي
★★★
الغلاف:
محمد محمود
★★★
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-12 **شارع أحمد عرابي**-**المهندسين**-**الدور الثالث**-**مكتب** 8
هاتف: 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com **الموقع الرسمي:** www.darlila.com

علاء عبد الباقي

ألف سلمة صعودًا

دار ليلى كيان كورب
للنشر والتوزيع

إهـداء

إلى أخي أشرف..

أشعر بك بجانبي.. ولكني لا أستطيع أن التفت لأراك

ثم إلى أمي وأبي

وكأن إهداء كهذا سيكفي!!

وإلى إخوتي منى وأحمد

زادي وعتادي

أين تقع حدود مملكة شقاء الإنسان؟

رواية الفهد.. لحيدر حيدر

إن الله قد يرمي، أحيانا، أمثالنا في بحر هائج، لكنه لا يغرقنا

رواية الشطار.. لمحمد شكري

قطعة صغيرة
من الشوكولاتة السوداء

وأنا صغير كان بجواري طفل يأكل الشوكولاتة، يقضم الفتات بطرف أسنانه ويستمتع بها، يحملها بكلتا يديه كأنها أغلى شيء يملكه. طلبت منه قطعة صغيرة فرفض، كنت غاضبا جدا، فدعوت الله أن يموت، بعد فترة قصيرة مات، لم يسقط من ارتفاع، لم تدهسه سيارة، حتى أنه لم يمرض، فقط مات.

وأنا صغير دعوت الله أشياء كثيرة جدا. كأن أكف عن الذهاب للمدرسة، أن احصل على مال كثير. أن يكف أبي عن ضربي، أن أنسى أنني كنت سببا في موت طفل صغير، ولكن الله لم يتقبل مني

غير تلك الدعوة فقط، فلم أحصل على مال كثير طوال عمري. لم يكف أبي عن ضربي. ومستواي الرديء في التعلم أجبرني أن أظل في الدراسة فترة أطول، والآن بعد أن أصبحت رجلا سأبدأ عملي الجديد في مصنع للشوكولاتة، فقط أن يموت هذا الطفل هو الاستجابة الوحيدة.

شكوت لأمي فقالت أن الله له طرقه الخاصة، وأن الطفل كان سيموت حتى لو لم أطلب من الله ذلك، ولما قلت لها أنها تقف في صف الله ضدي، صفعتني بقوة على وجهي وقالت أن لا أحد في صفه، الله واحد ونحن عبيده، لا أحد يدافع عنه، هو يدافع عن الناس. الصفعة آلمتني فبكيت، لم يعد أبي فقط هو من يضربني، أمي أيضا بدأت تفعل.

وأنا صغير بدأت أدعو الله بأشياء لا أريدها، أن يستمر أبي في ضربي، أن أذهب للمدرسة لفترة أطول، أن لا أحصل على أي مال، أردت فقط أن أعرف هل الله يفعل ما لا أريده أم هو يختار من بين الدعوات؟، هل هناك مشكلة بيني وبينه؟، أم هو فقط يتصرف بطريقته الخاصة؟.

أكبر ويكبر سؤالي معي، لا أستطيع أن أرمية من على ظهري، فأنحني وتصبح خطواتي بطيئة، وطالما لم أجد إجابة، سيأتي اليوم الذي يدهسني فيه.

لاحظت اليوم أن صلعتي تزداد توسعا، فتذكرت أنني في منتصف الأربعينات، ومن الوارد أن تؤلمني عضلاتي في العمل، وأعرف أنني سأشيخ أسرع من المعتاد.

هكذا قالت لي أمي وأنا صغير، يتملكك العجز حينما تكون وحيدا، فلا تصبح وحيدا يا ولدي.

هل كانت تعرف أنني سأصبح وحيدا. أنني في يوم ما سأسكن كارفان ضيق وحدي. عمري في منتصف الأربعينات ولازلت أخاف حينما أنام في الظلام، فهل كانت تعرف أمي؟، أم أنها دعت الله أن لا يبقيني وحيدا أبدا؟.

ذهبت لعملي الجديد اليوم وأنا أشعر بالهواء البارد يلمس صلعتي، لم يكن العمل بعيدا، فقد وجدت مساحة جيدة لأضع فيها بيتي المتنقل خلف مصنع الشوكولاتة الذي سأعمل فيه.

تعرفت في اليوم الأول على رفيق، شعر طويل أسود مسترسل حتى الكتفين، لم أعجب بهذا الرجل ولو للحظة واحدة، ربما بسبب شكل أنفه الضخم كورم في وجهه، دائما ما يلمس شعره كلما سنحت الفرصة مما يشتت انتباهي وأنا أتحدث معه، الشخص الثاني أسمه ربيع، قصير بوجه مربع، خفيف الظل وله أصابع قصيرة، ضغط على يدي في السلام، يبتسم برقة ويتحدث بصوت خفيض مما يجعلني

أسأله دائما أن يعيد الكلام، أو أقترب كثيرا بأذني ناحية وجهه لأستطيع سماعه.

أخذني ربيع إلى مكان عملي وقال أن رفيق هو أقدم شخص يعمل في هذا المكان، يتعامل معه العمال هنا باحترام شديد، وهو متفاني جدا في عمله، مما جعله كبير عمال النظافة، وهو استخدم صلاحياته جيدا، فقد بدأ يوزع العمل على العاملين الجدد، يطرد المتهاون -في رأيه طبعا- ويأتي بأشخاص جدد، صارم جدا في عمله، عقوباته دائما شديدة، لم يعجبني سماع هذا الكلام، خطر لي أن أتركه وهو يتحدث وأذهب. فكرت في أن هذا المكان غير مناسب لي، لكن طريقة ربيع في الحديث وابتسامته، جعلتني أصمت حتى انتهي من حديثه.

ذهبنا حيث أدوات العمل، طست أخضر مليء بالماء الآسن، وفرشاة كبيرة وممسحة.

- هذه أدواتك.. المطلوب منك هو تنظيف الأرض في الدور الأول والدور الثاني.. الدور الأول سهل.. أما الدور الثاني فيوجد المكاتب

حينما صعدنا إلى الدور الثاني، بدأ يشرح كيف يتم تنظيف المكاتب، كل ورقة على المكتب مهمة، كل قلم ذي قيمة، وإذا فُقد شيئا ستسأل عنه.

لم يسألني ربيع منذ متى وأنا أعمل في النظافة، لم يبدو مهتما إن كان عندي الخبرة أم لا، المهم هو أنني سأكون تحت ملاحظته، وهذا ما أغضبني، أردت أن يسألني ولو لمرة واحدة. أريد أن أقول له أن هذه ليست المرة الأولى لي، فأنا أعمل في النظافة منذ فترة طويلة جدا. بهذه الطريقة سيظل يعاملني كأنها مرتي الأولى، وأنا -إن كان حظي سيئا- لن تأتني الفرصة المناسبة لأقنعه بأنني أمتلك الخبرة.

عدت مرة أخرى إلى الكارفان، وضعت جدول عملي الجديد بجوار السرير وثبته بلاصق ورقي ليصبح ظاهرا لي، نظرت من النافذة الصغيرة فوجدت المساحة الخضراء الموجودة في الخارج، تنتهي بسياج معدني مستطيل يضم بداخله ملعب صغير للكرة، وحينما التفت لداخل الكارفان، وجدت الطفل الصغير يجلس على الأرض، ويأكل من قطعة شوكولاتة في يده.

ارتعدت وعدت خطوتين للوراء، لن أصبح مجنونا بهذه البساطة، أنا متعب وتلك مجرد تخيلات ستزول. فركت عيني جيدا ونظرت مرة أخرى، لازال الطفل يجلس ويقضم من قطعة الشوكولاتة تماما كما حدث ونحن صغار، بدا وكأنه لا يشعر بوجودي، كأنني أنا الذي دخلت عالمه، ولما انتبه لي، كسر قطعة صغيرة ومد يده ناحيتي، نظرت من النافذة على المصنع فلم أجد أحدا بالخارج، أريد أن اصرخ

ولكني لا أستطيع. دعوت الله أن أنساه وها هو يجلس أمامي كما كان في المرة الأولى، أردت أن أصرخ لكنني خفت أن يسمعني أحد، خوفي جعلني أكسر النافذة المجاورة لي وانسللت منها.

الهواء بارد في الخارج، وملمس الأعشاب الخضراء وأنا أخطو عليها جعلتني أدرك أنني حافى القدم. وجدت مقعد فجلست، بدأت أستوعب شيئا فشيئا ما يحدث، طفل ميت يجلس في كارفاني يأكل الشوكولاتة، ما يبدو حقيقي فعلا هو عينا الطفل، هذا الطفل حي وله روح ويتنفس، أنا رأيت صدره يعلو ويهبط.

لكن هل أنا الوحيد الذي أستطيع رؤيته؟، هل هو غير موجود وأنا أتوهم؟، إن كان كذلك فهذا ما لم أتخيله في أفظع كوابيسي، وكي أخرج منه يجب أن أتأكد أولا أن هناك طفلا فعلا.

اتصلت بربيع، قلت له أن زجاج نافذتي مكسور وأريد أحدا معي لإصلاحه، تخيلته وهو يمسك الهاتف بأصابعه القصيرة. وقتها لم أكن أمتلك ردا مقنعا حينما يأتي ويسألني لماذا أنا في الخارج حافي القدم؟، لكني لم أفكر في أي إجابة أقدمها، أنا فقط أريد أن أتأكد من أنه سيرى هذا الصبي، وإن لم يراه فسأصبح مجنونا.

من الشباك المكسور دخلت بعد أن جرحت قدمي، رأيته مازال جالسا يأكل الشوكولاتة كما تركته، جلست بهدوء على الكرسي

وجسدي يرتعش، ظل يمد يده بقطعة الشوكولاتة وينظر لي بثبات كأنه سيظل هكذا للأبد، ببطء شديد قمت وأنا أستند بيدي اليمنى على الكرسي، وبظهر منحني مستعد لأي شيء، تقدمت خطوتان للأمام ومددت يدي، تحسستها فوجدتها حقيقية، نظرت إليه فوجدته بدأ ينتهي من القطعة المتبقية.

التفت ليدي الممتدة أمامي، تحسستها مرة أخرى ولكني لم أجرؤ على تذوقها، قطعة الشوكولاتة تبدو حقيقية تماما، ذوبان الأطراف ولزوجتها تبدو كما لو أن ما يحدث الآن حقيقي.

رأيت ربيع وهو يدور حول الكارفان، يجد الزجاج المكسور فينظر له ليحدد مدى الضرر ثم يدور مرة أخرى ويدخل من الباب، لم يبدو عليه أنه رأي أي شيء غريب، فقط يحاول أن يبدو مهموما بما رأي، جلس على أقرب كرسي ثم قال أنه يعرف شخصا يستطيع تركيب زجاج جديد

- ما الذي حدث؟
- أظن أن طفل قذف الشباك بحجارة

بدا كأنه اقتنع، هز رأسه ونظر لأسفل فرأي قدمي الدامية، لم يكن لدي أي رد لسؤاله عن قدمي فصمت، حاولت أن أختلق قصة تبدو منطقية ولكني لم أجد.

بعد أن صمتنا قليلا أنتبه فجأة وظل يبحث في جيوبه وهو يقول

- أحضرت بعض الأكياس البلاستيكية لوضعها على النافذة.. وغدا سأعطيك عنوان صديقي لتركيب زجاج جديد

ظل يلصق الأكياس السوداء بحواف النافذة ولما انتهى ذهب قبل أن يقول أي شيء كأنه يهرب، ولم تتسنى لي الفرصة لأقول له شكرا.

وأنا صغير كنت أرى خالي مرة كل أسبوع، ولما كنت أحكي له يقول "الإجابات تريح، أما الأسئلة التي بلا إجابة تميت" ثم يعود مرة أخرى ويصحح، "لا ليست الأسئلة التي بلا إجابات تميت، الموت يريح أيضا، الأسئلة التي بلا إجابة تنغز كإبر تحت الجلد."

خالي عجوز جدا، ضئيل، وتخاف منه أمي، لما سألته وأجابني، عرفت لماذا تخاف منه، خالي أيضا كانت له تساؤلات، ولكنه لم يعرف الإجابة، فظلت تنغز تحت جلده حتى مات.

جلست على الأريكة أفكر فيما يحدث. بما أنه لم يره أحد غيري فهو خيال، وإن توقفت عن التفكير فيه ربما سيذهب كما جاء، تلك الفكرة ملأتني سكينة، ربما كسكينة خالي حينما مات.

أتذكر خالي الآن، بانحناء ظهره، وصوته الضعيف الآتي من بين شقوق الصخر، لماذا أراه حاضرا بقوة في رأسي، وخصوصا في ليلته

وابتسامته الأخيرة، الراحة التي جرت في عروقه حد أنهـا فاضـت في عروقنا نحن فشعرنا بها جميعـا، هـل المـوت مـريح لهـذه الدرجـة، التفـتُّ إلى الطفـل للمـرة الأولى أحـاول أن أتواصـل معـه، أن ارضـي بوجوده، أتقبل جلوسه في عالمي ولـو قلـيلا، حاولـت أن أتـذكر اسمـه ولكني عجـزت، تفحـصت ملامـح وجهـه، ارتعبـت حينمـا وجـدتها حقيقية، إن لم تكن تلك ملامح طفل حي حقيقي، فما هو الحقيقي من حولي.

- م..من أين أتيت؟

سألته مترددا فأشار بإصبعه الصغير خـارج الكارفـان، ولمـا وجـد قطعة صغيرة من الشوكولاتة على طرف إصبعه لعقها في استمتاع.

- لماذا لم يراك صديقي؟

لم يكن يعلم فمط شفتيه السفلى ورفع كتفيه للأعلى

- لماذا لا تتكلم هل أنت أخرس؟

هز رأسه بلا. أيقنت أن الجلوس معه صعب، كنت أريد أن أسأله عن الموت وصعوبته، وعن الذين ماتوا، أردتَ أن أخف من نخز الإبـر تحت جلدي، ولكن من الواضح أنه ليس من الـسهل المعرفـة مـن هـذا الطفل. ثم ارتطمت برأسي حقيقة أن هذا الطفـل مـن خيـالي أنـا، مـن رأسي أنا، أنا الذي ابتدعته. وهنت تلك الفكرة كل قواي في المعرفـة،

فاستلقيت على الأريكة وحاولت أن أنام متمنيا أن أستيقظ ولا أري ذلك الطفل.

في الحلم وجدته يقف بجانبي، كلما خطوت خطوة يخطو مثلي، لم أستطع أن أرفع عيني من عليه والناس من حولي ينظرون إلى بحذر، فتذكرت أن لا أحد يراه غيري، فحاولت أن أسير كالمعتاد ولا أنظر إليه، فازدادت نظرات الناس لي، حاولت أن أبدو طبيعيا فلم يفلح ذلك، وبينما أسير، أسرع هو فجأة في الخطى حتى أصبح أمامي ثم التفت إلى، توقفت عن السير وبدأت الناس هي الأخرى تتوقف وتنظر، ثم بدأت أشعر بنغز الإبر تحت جلدي

- احملني على ظهرك

قالها الطفل وهو أمامي، بدأت أشعر بالدم يتفصد ساخنا على أكتافي ويدي، رفعت قماش القميص عن ذراعي فوجدت الدم يسير على يدي ويقطر على الأرض.

استيقظت من النوم ورأسي فوق وسادة مبتلة، يدي يقطر منها العرق، نظرت إلى الطفل فلم أجده فسقطت في النوم مرة أخرى.

في هذه المرة كنت أجلس أنا والطفل على مصطبة حجرية في فناء يعود لحضارة غابرة، الفناء مملوء بتماثيل عملاقة وجدران منقوش عليها رسومات لحيوانات لم أراها من قبل، يقول الطفل وهو يبدو

حكيما في جلسته وطريقة حديثة.

- هل ترى تلك البقعة هناك؟

كان يشير بيده وينظر للأمام، لم أكن أرى شيئا غير امتداد الأرض المتربة والأعمدة المنثورة عليها كأشجار حجرية

- تلك البقعة.. هناك.. مصدر الأسئلة في العالم.. من هنا تخرج الأسئلة ثم تلتصق بجلود الناس.

يعتدل في جلسته ثم يخرج قطعة من الشوكولاتة السوداء من جيبه ويعطني قطعة، تبدو شهية جدا، آخذها منه وأقضم منها فتذوب داخل فمي حتى أشعر بفرط مرارتها فأبصقها

- الأسئلة كتلك القطعة من الشوكولاتة.. تبدو شهية.. لكن مع عدم وجود إجابة تشعر بمرارة طعمها

لم أستطع أن أتخلص من الطعم المر في فمي، أنظر له ليساعدني ولكنه لم يفعل شيئا، فقط نظر لي وأمسك كتفي وحركه بقوة.

استيقظت والطفل جاث على الأرض يهز كتفي، حاولت – مذعورا– أن أبتعد عنه فارتطمت قدمي بالأكياس البلاستيكية فمزقتها، اعتدلت في جلستي لكن الهواء البارد القادم من الفتحة البلاستيكية جمد جسدي، حاولت فيما بعد أن أثبت القماش فلم أفلح، فتركته كما هو.

في طريقي للعمل كان الطفل يمشي بجواري، أقف فيقف، أمشي فيمشي، وقفت وصرخت فيه

- ماذا تريد مني؟

في المسافة بيني وبين باب المصنع كان يقف رفيق يتلمس شعره الطويل ناظرا للمصنع من الخارج، ولما سمع صراخي التفت إلى، ولما رآني جاء متسائلا

- ماذا حدث؟

حاولت أن أبدو طبيعيا فأشرت بيدي ناحية الملعب وقلت.

- واحد من الأطفال الصغار كسر نافذتي والآن مزق الأكياس البلاستيكية

ابتسم ببرود ونظر في الناحية التي أشير إليها ثم نظر إلى مرة أخرى وقال

- ولكني لا أري أي أطفال!

- إنهم كالعفاريت.. يختفون فجأة ويأتون فجأة

إن كنت قد نجحت في أن أبدو طبيعيا أمام ربيع بالأمس فقد نجحت الآن، ولما هممت بالذهاب أوقفني وقال

- منظر الكارفان في تلك المنطقة غير مقبول.. بعض العمال

تشتكي.. حاول أن تجد مكانا آخر

همهمت ببعض الكلمات الغير مفهومة وتركته والطفل يمشي بجواري وأنا أحاول أن أتجنبه وأُسرع في الخطى، لكنه دائما ما كان يمشي بمحاذاتي. في داخل المصنع قابلت ربيع، حاولت أن لا أنظر للطفل مهما حدث ولكني فشلت، وهو -ربيع- لم يكن مرتاحا في الحديث معي هذه المرة، حاول أن يبدو مشغولا، وكلماته مقتضبة جدا، أعطاني عنوان صديقه لتبديل الزجاج المكسور ولما اشتكيت له عن مكان الكارفان وعدني بحل المشكلة مع رفيق وذهب. بعد وقت ليس بقصير وجدت ربيع مع رفيق يتحدثان، خالجني إحساس قوي بأن الحديث عني فارتحت لأمر الكارفان.

بعد أن انتهيت من العمل وفرت لنفسي بعض الأكياس البلاستيكية لأحاول تثبيتها على النافذة المكسورة، فنقودي المحدودة تمنعني من تغيير الزجاج الآن.

حينما كنت أبحث عن لاصق لتثبيت الأكياس وجدت رفيق وربيع يأتيان نحوي، فحاولت أن اخفي الأكياس ولكني فشلت فتظاهرت بأنني أعيد تركيب أكياس القمامة مرة أخرى، وبينما أنا منحني وجدت الطفل يشير إليهما فاعتدلت.

- هل تواجهك مشكلة؟

قالها ربيع بصوت خفيض، فقال رفيق

- إذا كان بخصوص الكارفان فاعتبر الموضوع منتهي.

كنت أحاول أن أبدو طبيعيا كالمعتاد ولكن الطفل كان يجيء ويذهب في الغرفة، فوجدت صعوبة في عدم النظر إليه

- فعلا.. أنا عندي مشكلة في الكارفان.. فلا يوجد عندي مكان لأبيت فيه ولا مكان آخر لأضع فيه الكارفان غير هنا.

وقفنا نتحدث طويلا. أنا أحاول أن أقنعهم بأنه لا يوجد أي شيء يستدعي القلق، وهما يحاولان أن يعرفا ما هو السر في تغير تصرفاتي بهذه السرعة، إذا كان مالاً فسأحصل عليه آخر الشهر، وإذا كان الكارفان فسيبقى كما هو، ولما وجدتهما صادقين في قلقهما على لم يكن أمامي غير حلين أثنين. أن أعترف لهما وأن أتحمل ما يترتب على هذا الاعتراف، أو أبين أنها مشكلة مال وينتهي الموضوع عند هذا الحد. استأذنت في الدخول للحمام كي أرتب أفكاري، لم يكن الموضوع سهلا، إن انكرت سيظل الطفل يسير ورائي أينما ذهبت، وستضيع على فرصة المساعدة إن كان يستطيعان، أو اعترف لهما بالحقيقة وأجد نفسي بلا عمل، حاولت أن أبدو هادئا قدر المستطاع، والطفل يقف بجواري ينظر إلى بعينين حيتين .

- إحملني على ظهرك

قالها الطفل كأنه ظل دهرا يفكر في حل لتلك المشكلة، كأنـه يعلـم مـشكلة وجـوده وأن هـذا الحـل هـو المخـرج الوحيـد لتلـك المـشكلة، تذكرت الحلم الذي قال لي فيه تلك الجملة، وتـذكرت ربيـع ورفيـق الواقفان في الخارج ينتظران، وبدا لـي حـلا معقـولا، هـذا الطفـل لـن يذهب كما جاء ولن أستطيع أن أتظـاهر بأنـه غـير موجـود، سـأحمله على ظهري كسؤال ينوء ظهري تحته.

فعل مستعار

ظل الشيخ يفكر كيف سينقل زجاجة الخمر.

حك لحيته وهو يبحث عن مخرج لتلك المشكلة، قام من مكانه واضعا يده خلف ظهره ناظرا لسقف الغرفة متوجها بالسؤال

- ليه أنا يارب؟!

فكر في أن يستنجد بأحد الشيوخ الثقات الذي يحظى معهم بصداقة وطيدة، ويسأله عن حكم المضطر في نقل زجاجة خمر، ولكن كيف سيجيب إن سأله أحدهم عن السبب، هل سيخبرهم أن رئيسه في العمل هو من أجبره على ذلك، هل سيقول لهم أنه يخاف رئيسه في العمل أكثر من الله نفسه. من المؤكد إن اتصل بأحد للمساعدة سيضطر ساعتها للكذب.

يعرف الشيخ جيدا الثمن الذي سيدفعه إن رفض الاستجابة لطلب رئيسه، سيطرد ويعود مرة أخرى للشارع، ومن المؤكد أنه لن يجد عملا مرة أخرى، من ذا الذي سيرضى به وهو في هذا السن؟، اذن فهو فعلا مضطر، ولذلك سيقبل بتلك المهمة وسيحاول بأقل الأضرار الممكنة.

فكر في أن يطلبها من الإنترنت، وحينها سيجعل حاملها يضعها على أقرب منضدة، ثم يتصل بأحد الأصدقاء لحملها حتى السيارة، وربما أيضا رافقه صديقه لمنزل الوغد رئيسه في العمل، وبذلك تصبح المشكلة منتهية، وبخصوص المال الذي سيدفعه، هو لا يريده، هو فقط يريد لهذه الليلة أن تنقضي.

انتظر جهاز الكمبيوتر حتى فتح، ذهب لأحد المواقع التي تتيح له طلب أي شيء، طلب زجاجة **Cuvée Bixinto** التي أملاها له رئيسه عبر الهاتف فوجد ثمنها سيكلفه ضعف ثمنها لو طلب توصيلها حتى البيت.

أغلق جهاز الكمبيوتر وقام واضعا يده خلف ظهره ونظر مرة أخرى للسقف وقال

- ليه يارب؟!

خرج للشرفة، جلس على الكرسي الأحمر بجانب الحائط، كانت

الغيوم في السماء تنذر بمطر وشارع Tranegårdsvej خاليا من المارة، وحمامة تطير قريبا منه وتهبط بجوار طبق ممتلئ بفتات الخبز الذي وضعه للطيور لتأكل، ظل ينظر للحمامة التي تهدل بانتظام فنمى بداخله إحساس لذيذ بالنوم، وفجأة أخرج هاتفه وقرر أن يتصل بأحد الأصدقاء.

- ازيك يا عبده.. عامل ايه يا حبيبي.. هل ستوافق إن طلبت منك أن تحمل زجاجة خمر لبيت رئيسي في العمل؟

أمام عبده الكثير من الأسباب التي تجعله يرفض، أولا هو ليس أقل إيمانا من الشيخ حتى يذهب هو ويشتري الخمر، ثانيا طالما الشيخ مضطر فليذهب ليشتريها ثم يكفر عن هذا الذنب والله غفور رحيم، ثم أن الدنيا لن تنتهي والله لن يخلق جهنم أخرى للشيخ لأنه سيشتري زجاجة خمر مجبرا.

لم يعد أمام الشيخ حلا غير أن يذهب هو ويشتري زجاجة الخمر تلك، ربما في الطريق وجد حلا، أو يخذله قلبه فيموت ويرتاح. لكن الله لا يميت الذين هم على أعتاب اختبار أو مشكلة.

ارتدى ملابسه سريعا، وهو على الدرج لمح جارته الثمانينية تدخل شقتها، وفكر وهو مازال يهبط أن يذهب إليها ويسألها بأن تذهب هي لتشتري تلك الزجاجة، ولكنه سيصبح من العسير تفسير

لماذا هو لا يريد أن يشتري ذلك بنفسه.

في الشارع وجد الخريف أمامه مباشرة، بهوائه وورق الشجر البني المنثور على الأرض، تجاهله وكأنه لا يراه، وظل يبحث عن أي مكان يجد فيه تلك الزجاجة الملعونة، وكي يجهد نفسه أكثر، ظل يمشي بخطوات متسرعة على غير العادة وهو في قرارة نفسه يتمنى أن يخذله قلبه الآن.

على الجانب الآخر من الطريق وجد محل صغير في واجهته تتراص الخمور بأشكالها فابتهج.

- أريد هذه الزجاجة

قالها وهو ينظر للبائع بمزيج من الكره والشفقة، هذا البائع سيذهب إلى الجحيم وسيشرب من سجيل وسيبقى هناك للأبد.

ظل البائع لمدة دقيقتين كاملتين يحملق فيه، في لحيته، في أنفه الأفطس، وشعر رأسه الرمادي، ولم يستطيع أن يخفي الرعب في عينيه، وخايله إحساس بانفجار وشيك .

- هذا النوع بالتحديد؟

قالها البائع بعد أن رد بابتسامة حاول فيها أن يبدو طبيعيا، ووضع الورقة على الطاولة الزجاجية التي تفصل بينهما.

- نعم هذا هو بالتحديد

- هذا النوع فرنسي ولن تجده في البارات الصغيرة.. يجب أن تذهب مباشرة للبارات الخاصة بتلك الأنواع.

غاب الرجل دقائق وعاد بورقة مكتوب عليها ثلاث عناوين

- كتبت لك عناوين البارت الخاصة بتلك الخمور وبدأت بالأقرب.. بالتأكيد ستجد هناك طلبك

سارع بالقول

- إن شاء الله

ظل قابعا في محطة الباص ينظر للمارين في الشارع، وتأكد من أنه لا أحد يعرفه قد رآه وهو يدخل أو يخرج من ذلك المكان، ولما تأخر الباص تذكر صورته وهو صغير، وكم كان يتمنى أن يصبح واعظا يحترمه الناس ويتراصوا حوله، وهو يجلس أمامهم على كرسي عال، يحدثهم عن الله الرحمن الرحمين. حسنا الآن هو يجلس منتظرا الباص الذي سينقله إلى متجر الخمر، والحلم الذي راوده وهو صغير ينتهي رويدا رويدا.

فكر الشيخ في معني الاضطرار، كيف لم يستطيع أن يقول لا وينهي الأمر، هل رئيسه في العمل هو الذي يرزقه أم الله؟. يؤمن الشيخ بأن لا أحد مضطر مادام الله يعطيك اختيارات، والله دائما يسيطر على تلك الاختيارات، الله يستطيع أن يعوضه طالما هو فعل ما

أمره، لكنه لم يستطيع أن يقول لا لأنه لن يجد عملا آخر في هذا السن.

جاء الباص فدخله، وقف في المساحة المخصصة للوقوف، لا كراسي فارغة، حتى تلك المخصصة لكبار السن جلس عليها بعض الشباب. محطته ستأتي بعد ثلاث محطات من الآن، في المحطة الأولى ضغط السائق الفرامل فجأة فتمايل الواقفين المسكين بقطع بلاستيكية متدلية من قضيب معدني بطول الباص. لمح تلك الجميلة وهي تميل على صدر حبيبها ممسكة بذراعه وتبتسم، شعرها قصير ويظهر عنقها الرفيع الأبيض، يميل بوجهه للناحية الأخرى فيرى انعكاس وجهه والآخرين في المرآة، تُظلم الدنيا شيئا فشيئا فتظهر الانعكاسات بوضوح، يرى وجهه ووجوه الآخرين، ويلاحظ وجه صاحبة الشعر القصير مبتسمة لحبيبها بينما تمسك ذراعه المتعلقة بالقطعة البلاستيكية، ويرى حبيبها وهو يضع يده على عنقها فتميل برأسها وتلتصق به أكثر، فتداعبه الخيالات فينظر بين قدميه ويستغفر الله.

خرج من الباص بوجه محتقن، كان الجو حارا في الداخل، أما الآن فيلفحه الهواء البارد. في نهاية الشارع وجد البار. لم يتوقع أن يكون صغير الحجم كهذا، أو له هذا المدخل الطويل الضيق، ورائحة التراب والكحول ودخان السجائر تملأ المكان، والإضاءة خافتة ولا

تستطيع تمييز شيء للوهلة الأولى. دخل حتى وجد رجل خمسيني يجلس خلف بار، لما رآه وقف مسرعا وحدق فيه قليلا، ثم قال مهللا بعد أن رأي ملامحه العربية.

- آآآآه.. أنا عشت كثيرا جدا

في وقفته بان قصر قامته، وكرشه الممتد أمامه، وصوته المهلل جعل الشيخ يرتبك ويسأل.

- ماذا تقصد؟

تقدم خطوة للأمام واستند على الكرسي ثم وضع كوع يده اليمنى على البار وأسند رأسه على كف يده وقال بصوت هادئ

- أنا عشت كثيرا لدرجة أنني رأيت شخصا مثلك جاء هنا.. قل يا صديقي.. امرأة أم مال؟

قال الشيخ وهو لا زال يمسك بالورقة في يديه

- أنا لا أفهم شيئا مما تقول.. كل الحكاية أنني أريد أن أشتري تلك الزجاجة.

وضع الشيخ الورقة أمامه، ونظر للمرة الأولى لداخل البار، بدأ يميز الرجل الجالس بجانب الحائط الذي يقبض بكفيه على كوب ضخم ممتلئ بمشروب ذهبي حتى حافته.

النوافذ الصغيرة المعلقة على الحائط أثارت انتباهه، لماذا لا

يفتحونها، سيختنق الجميع لو جلسوا هنا دقيقة أخرى. رائحة المكان لا تطاق

- لن يجدي السعال نفعا هنا.

قالها النادل العجوز وضحك بعد أن سعل الشيخ، وأردف

- أظن أن هذا النوع ليس متوافر منه غير المعتق.

الكرسي المجاور للشيخ كان عاليا بعض الشيء، مما أخذ منه وقتا وبعض التمايل لكي يجلس تماما ويقترب برأسه من العجوز ويقول

- أين يقع أقرب مكان أستطيع أن أجد فيه تلك الزجاجة؟

- يجب أن تستعمل ثلاث باصات كي تصله

ضم الشيخ يديه على بعضهما ثم أسقط رأسه عليهما وتمتم بكلام غير مفهوم، حاول العجوز أن يبتسم فبانت أسنانه الصفراء المكسورة.

- حسنا.. تعال معي القبو.. ربما وجدت زجاجة هنا أو هناك

الأمل الأخير للشيخ في القبو هذا، وقرر بلا رجعة أنه لو لم يجد تلك الزجاجة هنا ستكون تلك رسالة واضحة من الله، وسيكون هناك سببا حقيقيا لعدم توصيل تلك الزجاجة، لكنه ومن داخله خاف أن لا يجدها.

حينما انتهيا من نزول السلم ولمست قدماهما الأرض توقف جسديهما عن الارتعاش. فتح الشيخ عينيه بقوة لكي يرى في الظلام،

أما العجوز فعرف طريقه بسهولة، اندفع في القبو بين البراميل المتناثرة والأرفف الحاضنة للقنينات حتى وقف أمام مجموعة من الزجاجات المتراصة على الأرض وأخذ واحدة منها وظل ينظر إليها.

- لماذا اندهشت حينما رأيتني؟.. رجل مثلك رأي عرب يشربون الخمر.

قالها الشيخ بعد أن وجد العجوز في هذا القبو الواسع وهو ينظر للقنينة في يده، فأكمل

- هل وجدتها؟

- نعم

في طريقهم لصعود السلم عاد جسديهما للارتعاش مرة أخرى، وأعاد الشيخ سؤاله، فرد العجوز

- أنت مختلف.. لحيتك ونظرتك وتلك العلامة الخفيفة على جبينك ثم هيئتك وأنت تدخل المكان.. عرفت أنها أول مرة لك.. أنا أراهن أن تلك الزجاجة ليست لك.

في الأعلى قلت كثافة الرائحة قليلا، وبدأ يشعر ببرودة الجو، ومازال الرجل جالسا وكوبه نصف ممتلئ.

حينما أدار الشيخ ظهره واتجه ناحية الطاولة التي يجلس عليها الزبون كان العجوز يبتسم، أما الشيخ فكان يفكر كيف سيعرض على

الرجل الجالس مالا مقابل إرسال الزجاجة لرئيسه في العمل.

كان الأمر مريبا في البداية، شرب الرجل ما تبقى من كوبه في جرعة واحدة، ثم نظر إلى الشيخ وابتسم، حاول الشيخ أن يشرح له أنه مضطر وأنه سيعطيه في المقابل ثمن ثلاث أكواب من البيرة، لكن الرجل بدأ في الضحك بصوت عال، فجعلهم الشيخ أربعة أكواب وهو يعرف أن الأمر غريب من البداية وأن لا أحد سيرضى بهذا العرض أبدا حتى أعز أصدقائه، وأنه مضطر لتوصيل تلك الزجاجة بنفسه.

هذا الرجل ضحية أفكاره. فكر العجوز وهو يحاول أن يجلس على الكرسي الطويل لما عرف الحكاية كلها، أخذ ثمن الزجاجة ثم أعطاها له مغطاة بكيس بلاستيكي أسود كما طلب الشيخ. لكنه قبل أن يخرج من البار حاول أن يبتسم وهو يقول

- آسف فأنت مخطئ.. هذه ليست أول مرة لي

وهو في الخارج لم ينس أن يجعل الكيس الأسود بعيدا قليلا عن جسده، فظهر جسده مائلا طوال الطريق. حتى حينما اضطر أن يقف في الباص لم ينس أن يبعد الكيس قليلا ، فظلت الناس تنظر له وللكيس الذي يحمله.

لما وصل لبيت رئيسه في العمل أعطاها له ولم يقل شيئا، حتى أنه لم ينتظر ليأخذ ثمنها، وفي أثناء عودته للبيت شم رائحة غريبة،

رائحة أقرب لتلك التي كانت تخرج من فم الرجل صاحب كوب البيرة، تجاهلها ومشى حتى وصل للبحر وأكمل المشي بمحاذاته وهو ينظر للأنوار المشتعلة في البيوت المتراصة على البحر، ولاحظ أنها لا تتلألأ كالنجوم، أما الرائحة فكان يشمها كلما هبت الرياح، ظن في البداية أن الرائحة مؤقتة وأنها تأتي من البحر أو من شيء ملقى في الطريق، لكن الرائحة لم تختفي. شمها في الباص وهو عائد، وشمها في لحيته وهو ملقى على الأريكة في بيته، حتى أنه شمها في وسادته حينما حاول أن ينام.

روث

باب حظيرة البهائم مقابل لباب غرفة النوم، والمسافة بينهما متر ونصف، والسؤال الذي حير عباس هو لماذا لا يشم رائحة الروث داخل غرفة النوم في الوقت الذي تستطيع أن تشم فيه الرائحة وأنت في مدخل البيت؟.

كانت تلك مشكلة عباس، ربما تبدو مشكلة بسيطة، حتى أن زوجته قالت له أن يحمد الله على ذلك، فهم على الأقل يستطيعان النوم بدون رائحة توقظهم في الليل، لكن عباس لم يرضى أن تمر تلك الحكاية ببساطة.

في يوم ما وقف داخل الحمام –اقرب مكان للحظيرة بعد غرفة النوم– فشم فيها الرائحة حتى أنه كاد أن يراها تسبح في الهواء بلون

أخضر، فلو دخل أي شخص غريب الحمام، فسيتقيأ قبل أن يخلع سرواله، فلماذا إذا لم تصل الرائحة لغرفة النوم؟.

في البداية لم تعر زوجته أي اهتمام للموضوع، حتى جاء اليوم الذي رأته فيه يقف أمام باب غرفة النوم ويغلق أنفه بيديه ثم يمشي حتى يصل لمنتصف الغرفة ثم يترك أنفه ويحاول جاهدا أن يشم قدر المستطاع.

"من الممكن أن تَعوّد أنوفنا على الرائحة هو السبب، لكن كيف أشمها على بعد خطوات؟"، هكذا يتساءل عباس وهو مازال يقبض على أنفه في محاولته الثالثة، فتنطلق زوجته بالسباب واللعنات الغير مسموعة على القدر الذي رماها على هذا المجنون.

محاولات عباس المستميتة لم تجدي نفعا، حتى أنه صمم أن يطفئ نور لمبة الجاز طوال الليل، على اعتبار أن رائحة لمبة الجاز تطرد رائحة الروث كل تلك المدة، ولما اعترضت زوجته بدعوى أنها تخاف الظلام قال:

- انتي نايمه في حضن راجل يابنت الوسخه

تزداد حدة عباس مع مرور الوقت، وتزداد محاولاته يوما بعد يوم، وتصبح تمارين الشم في ازدياد، وزوجته لا تملك فعل شيء غير انتظار اليوم الذي سينسى فيه عباس تلك السخافات.

إلا أنه جاء بفكرة جديدة، سينقل دولاب الملابس خارج غرفة النوم، سيضعه في أي مكان، من الراجح أن الخشب يتمتع بقدرته على امتصاص الرائحة، فكر عباس مليا في الموضوع. لا خشب في الحمام حيث تشم الرائحة، بينما الرائحة غير موجودة في غرفة النوم المليئة بالأخشاب.

أفرغ عباس الدولاب من جميع الملابس، حتى الجزء العلوي الموجود فيه أشياء لا يستعملها، وبعد أن فكك أجزاء الدولاب قطعة قطعة، بدء في نقلها، لكن المنظر الفوضوي لم يعجب الزوجة طبعا، فكانت الملابس في كل مكان، حتى المرآة في الضلفة اليسري للباب تهشمت وقطعت جزء كبيرا من يده، فتناثر الدم على الخشب والأرض وبعض الملابس، فأجبره الحادث على الجلوس لبضع دقائق، ولم ينسى -بينما هو جالس- ان يشم رائحة المكان الجالس فيه.

حاول عباس أن يعيد تركيب الدولاب خارج الغرفة ولكنه فشل، فالدولاب كبير جدا وهو لا يعرف كيف يعيد الأجزاء بالترتيب الصحيح، فظلت الفوضى تعم البيت، وزوجته تهيم على وجهها في محاولاتها لتنظيف الأرض وغسل الملابس وضرب كل شيء يأتي في طريقها.

بعد أن توقف نزيف دمه أخرج الكمودينو الخشبي بعد أن وضع

الأشياء التي كانت فوقه على الأرض، فظهرت غرفة النوم واسعة جدا، ولا يوجد فيها غير السرير المعدني الكبير.

بعد أن غسلت الزوجة الملابس المتسخة، صنعت صندوقا خشبيا من بقايا الدولاب ووضعت بداخله بعضا من الملابس ثم تركت البيت ذاهبة لأخيها، وقتها كان يبدو ان تدخُل أخيها حلا لابد منه، فهي لن تستطيع أن تتعامل مع زوجها وهو في تلك الحالة.

وقف أخو الزوجة مهيبا أمام الباب، يرتكز على عصا منقوش رأسها على هيئة أفعى، يرتدي جلبابا أزرق وعمامة بيضاء، لم يستأذن ولم يقل شيئا، دفع الباب بيديه، وطوح العصا الثعبانية إلى الأمام والخلف كلما مشي، والزوجة تمشي وراءه تنادي على عباس.

خرج عباس من غرفة النوم. كان يحاول أن يفكك الفراش المعدني، ظناً منه أن المعدن يمتص الرائحة

- اهلا يا حج أحمد اتفضل

قالها عباس وهو يمسح العرق الهابط على عينية، بينما الحاج أحمد يحاول أن يجد شيئا ليجلس

- ايه اللي انت عامله في البيت ده ياعباس؟

حينما بدأ عباس بالشرح للحاج أحمد عن الفوضى الموجودة في البيت لم ينسي أن يؤنب الزوجة ببعض النظرات التي توحي بأن

الليلة لن تنتهي على خير. بدأ يحكي عباس بتأثر وهم عن الرائحة، بينما الحاج أحمد يحاول أن يبدو مهتما بما يسمع، متسائلا عن السبب في هذا فعلا.

أخذ عباس الحاج أحمد ودخل به إلى الحظيرة وطلب منه أن يشم الرائحة، رفض الحاج احمد في البداية أن يدخل الحظيرة خوفا على مقامه وهيبته، ولكنه بعد أن حمل طرف جلبابه وعصاه من المنتصف، دخل وبدأ يشم.

- شامم ايه؟
- هو ايه اللي شامم ايه.. شامم ريحة خره طبعا

الرد أبهج عباس فابتسم، وأمره بأن يذهب معه إلى غرفة النوم، وعندما دخلا سأله عباس

- ها.. شامم الريحه؟

استعجب الحاج أحمد من ذلك، لا يوجد رائحة فعلا، ولما رأى عباس علامات التعجب على وجه الحاج أحمد زاد

- دا انت حتى بتشم الريحه في الحمام.. ولا يمكن تشمها ف اوضه النوم
- حاجه غريبه فعلا

حكي له عباس عن كل شيء، عن لمبة الجاز التي طفاها ليلا،

والدولاب الكبير الذي نقلة، حتى أنه حكي له عن محاولاته لتفكيك الفراش المعدني، كانت الزوجة غير بعيدة عنهم، ولما سمعت من زوجها عن محاولاته فك الفراش صرخت

- انت اتجننت.. هنام على الأرض؟!!

ثم وجهت الكلام لأخيها الذي مازال يحمل طرف جلبابه بيديه

- وانا اللي مفكراك هتعقله؟

حاول الحاج أحمد أن يبدو جادا فقال

- ماهي حاجه غريبه بردو.. ازاي مفيش ريحه هنا؟.. دا انا عندي الريحه ماليه البيت كله.. أنا لازم أعرف السر واجربه عندي

تركتهم الزوجة يفكران في سر الرائحة، وهي لا تعرف ماذا تفعل، لمن تلجأ الآن بعد أخيها الذي خيب ظنها، هل تذهب لشيخ الجامع، ولكن ماذا ستقول له، زوجي وأخي أصابهم هوس أم مس شيطاني؟، وماذا ستفعل إن أصاب الشيخ ما أصاب أخيها، ولكن لا يبدو أنها تمتلك خيارا آخر، فلتذهب للشيخ وليكن ما يكون.

خلعت حذائها أمام باب المسجد ودخلت، تأكدت من أن رأسها مغطي جيدا، ثم طرقت على باب غرفة الإمام حتى فُتح، فظهر لها رجلا مبتسما يدعوها للدخول، كانت الغرفة صغيرة مخصصة للإمام ليقرأ فيها القرآن ويستمع فيها لشكاوي وتساؤلات الناس الدينية.

بعد أن جلست الزوجة وحكت له عن المشكلة لم يبدو عليه أنه يعرف ماذا عليه أن يفعل فسألها

- يعني الريحه موجوده في الحمام ومش موجوده في اوضة النوم؟!!

أجابت بنعم فتعجب الإمام

- ازاي بس؟!!

عرفت الزوجة أن لا أمل من الإمام أيضا فحاولت أن تستأذن بلطف فسارع الإمام بالقول

- استني بس.. صلي على النبي

بعد أن صلت على النبي قالت:

- يامولانا بقولك ده شطان ولعب في دماغه.. وبعدين دي نعمه لما يكون مفيش ريحه في اوضة النوم.. ده كده يبقى بيرفس النعمه برجيله.. حلال ده ولا حرام يامولانا؟

- حرام طبعا يابنتي

قالها الإمام وهو عازم على المساعدة فعلا، طلب منها أن تذهب هي للبيت وهو سيغلق الغرفة ويذهب وراءها، كان يبدو أن هناك أملا في حل المشكلة، وبرغم الخوف الذي يكبر بداخلها من رد فعل زوجها، لم تفكر في العقاب، فليفعل ما يفعله، المهم أن تتوقف تلك

الفوضى.

حينما وصلت الزوجة للبيت وجدت نصف الفراش مفكك ومرتكز على الحائط وملقى عليه جلباب أخيها وعصاه، سارعت بالدخول للغرفة فوجدت زوجها يقف حاملا جزء من جانب الفراش، أما أخيها فيرتدي الملابس الداخلية فقط ويحاول فك آخر جزء.

لما رأتهما الزوجة لم تفعل شيئا، لقد نجحت هذه المرة في التحكم في ردة فعلها بسبب إمام المسجد الذي سيأتي، ولما همت بتركهم طلب منها زوجها أن تصنع لهما قهوة، كانت آمالها على الإمام كبيرة، ولكنها تساءلت ماذا لو فشل الإمام هو الآخر، ماذا يجب عليها أن تفعل.

أثناء صنعها للقهوة سمعت طرق الإمام على الباب، تركت كل شيء وذهبت له، فتحت له الباب ومشت أمامه حتى غرفة النوم، ولم تنسى طبعا أن تشير لأجزاء الدولاب الموضوعة على الأرض والفوضى التي صنعها زوجها، أما الشيخ لم تتغير ابتسامته، ظل هادئا يمشي وراءها مؤمنا على كلامها حتى وصلا لغرفة النوم

وجه عباس حينما رأي زوجته تقف أمام إمام المسجد لا يوصف، أحمر وجهه فجأة وارتجف جفنه السفلي لعينه اليسري، أما الحاج أحمد فظل واقفا لا يعلم ماذا يفعل، ثم فجأة هب واقفا وذهب ليرتدي

جلبابه وليحمل عصاه مرة أخرى.

حاول الإمام أن يبدأ بالكلام فقال أن الزوجة استشارته وهو أتي بناء على طلبها. فأصبح اهتزاز جفن عباس واضحا للجميع. أما الحاج أحمد فألقى السلام كأنه أتي في تلك اللحظة، كانت النظرات بين عباس وزوجته توحي بأن شيئا عظيما سيحدث، أما هي فلم تكن تبالي.

حاول عباس أن يأتي بشيء ليجلس عليه الإمام فلم يجد، لكن الإمام لم يكن يريد الجلوس لوقت طويل، فهو رأي النظرات الغير مريحة بين الجميع، وخصوصا بين عباس وزوجته، وشعر بأنه دخيل عليهم، وأنه يجب عليه أن يتركهم.

- ياجماعة أنا بس جيت علشان أقول أن أنت ياعباس في نعمه.. أحمد ربنا ان مفيش ريحه.. ورجع الحاجه مكانها

أنهي الإمام كلامه فأمن عليه الجميع، لكن لم يقتنع أحد. عباس يريد أن يعرف سر الرائحة، والحاج أحمد يريد أن يعرف لكي يصنع في بيته المثل، أما الزوجة فكانت تقف على بعد أمتار منهم تسمع كل شيء، ولما استأذن الإمام لتركهم، جرى عباس أمامه حتى باب البيت.

لما سمعت الزوجة ما جرى كانت قد تأكدت أنه يجب عليها أن

تفعل شيئا، أما عباس فعاد جريا لغرفة النوم ليكمل ما بدأه، والحاج أحمد خلع جلبابه مرة أخرى وركن عصاه على الحائط كما كان في السابق، وأعاد عباس طلب القهوة بصوت عال.

ذهبت الزوجة لغرفة النوم وقالت أن القهوة جاهزة ووضعتها في الخارج، ولما خرجا عباس والحاج أحمد من الغرفة، ذهب الزوجة للحظيرة بعد أن ربطت جلبابها في وسطها، ثم انحنت على الأرض وأخذت من الروث ملء يديها وذهب به إلى غرفة النوم، ثم بحثت عن مكان لا يراه أحد لتضع ما تحمله فيه، عادت الكرة أكثر من مرة.

بعد أن وضعت الكثير من الروث تحت ما تبقى من الفراش وعلى الأرض وغطته بحيث لا يلاحظه أحد نادت بصوت عال عليهما. لما حضرا قالت لهما أن يخبروها ان هم أيضا يشموا شيئا مثلها. كاد عقل عباس أن يطير، فهو لم يشم الرائحة هنا من قبل فماذا حدث؟، أما الحاج أحمد فشعر بالضيق ثم ارتدى جلبابه وطوح عصاه إلى الأمام والخلف وهو خارج

الكمال

اجتمعت قطرات المطر على زجاج نظارته فخلعها، لفت نظره لمعان الضوء على أكوام الثلج المتبقية من ليلة مثلجة، وأعجبه دِقة الشجر المتراص على جانبي الطريق، وظل يرمق بركات الماء المليئة بالدوائر، وابتسم للناس التي تحمل مظلات لتحميها من قطرات المطر.

استمر في المشي حتى وقف للإشارة الحمراء، مازال هناك ثلاث دقائق متبقية على موعده مع صديقه، فليمضها في المشي في ذلك الطريق الطويل. توجه يمينا للإشارة المقابلة ليستغل إضاءتها الخضراء في العبور، مشى واضعا يديه في جيبه، وغاصت قدمه اليمنى في بركة ماء صغيرة، يحب دائما أن يمشي في هذا الشارع بسبب

النوافذ المحاذية للطريق، فهو يستطيع أن ينظر بداخلها ليرى الغرف المختلفة، في تلك النافذة مثلا، يجلس هذا الرجل الأربعيني على أريكة سوداء، يمسك بيده كتابا ضخما، والحائط في ظهره مليء بالكتب وأقراص الأغاني المدمجة، أما تلك الأخرى فهي عبارة عن غرفة ضيقة جدا، لا يوجد فيها غير فراش صغير، وكل تلك الغرف مملوءة بالهواء الدفيء في هذا البرد.

في اليمين، اتجه لشارع لم يمشي فيه من قبل، لم تكن فيه نوافذ ولكنه مملوء بالشرفات، بعضها مزينة بورود ذات ألون مختلفة، وشرفة تضم العلم الدنمركي الصغير مما يعني أن شخصا عيد ميلاده اليوم. ظل يمشي حتى نهاية الطريق، حتى وقف في إشارة حمراء أخرى، ولاحظ وجود بركة ماء كبيرة فابتعد عنها خوفا من أن تأتي سيارة مسرعة وتعبرها فتغرقه بالماء، ولم يفكر في الوقت المتبقي على موعد صديقه.

- عفوا.. هل معك ولاعه؟

صوت أنثوي مميز جاءه من اليمين، قبل أن ينظر لها ظل يبحث في جيوبه عن ولاعته حتى وجدها، ناولها إياها فوجد شعرها مبتلا برغم قبعتها المتدلية من سترتها الحمراء، وكانت تحمل على ظهرها حقيبة لآلة الكمان

حاولت عدة مرات لكـي تـشعل سيجارتها ولكـن الهـواء رفـض، ابتعدت عنه قليلا حتى اقترب من الحـائط وعـادت مـرة أخـرى، ثـم عبرت الطريق معـه. كانـت مـشيتها أقـرب للـرقص، وتنبعـث منهـا رائحة أقرب لشامبو الإستحمام، فظل يمشي بجوارها وهـي مـستمرة في مشيتها الراقصة.

- لماذا لا ترتدي القبعة؟
- لماذا؟
- لأنها تمطر
- لا.. فأنا أحب المطر.. هل تحب المطر؟
- أكيد
- لماذا؟
- لا أعرف

نظرت له ومدت يديها المفتوحة في الهواء

- لا تعرف؟!!.. هناك ألف سبب يجعلك تحب المطـر.. ذلـك الماء المقدس..يد الله التي تحيي، الفرصة التي تجعل الأشياء أنظـف.. ألا ترى تلك الخضرة اللامعة.. أنها بسبب المطر

كانت المساحة الخضراء بجانب الطريق لامعة فعلا، فأعـاد النظـر لها وقال:

- أنت شاعرة إذا؟

فقالت وهي تشير لظهرها

- لا.. أنا أعزف الكمان بالأوبرا.. هل تحب الموسيقى الكلاسيك؟

- لا.. تجعلني أنام

صمتت قليلا وأخذت نفسا طويلا من سيجارتها وألقت بها ثم بدأت تدندن بمقطوعة موسيقية فابتسم.

- الموسيقا تعلق في أذني.. لا أستطيع أن أنساها.. حاول أن تسمع الموسيقا.. إن لم تعجبك ستجعلك تنام

بدت له فكرة جيدة، هو أصلا لم يستمع للموسيقى الكلاسيك، لم يعطي لنفسه فرصة للاستماع، ولا يعلم حقا هل سيستمتع بها أم لا، وظلت هي تدندن وهو يمشي بجوارها حتى انعطفت يمينا وسألته

- إلى أين تذهب؟

- إلا لا مكان

- حسنا.. فرصة سعيدة

ابتسم لها وظل يتابعها حتى فتحت باب مبنى واختفت بداخله، أما هو فرفع وجهه للسماء فنزلت قطرات الماء على وجهه، كان سعيدا يردد:

- المطر.. الماء المقدس.. يد الله التي تحيي

ومشى حتى نهاية الطريق محاولا أن يجد طريق العودة، فرح حينما ظن أنه تائه. سيمشي قليلا تحت المطر، وسيستكشف طرقا أخرى ليراها.

عتبة الباب

- الوحده وحشه يا بني.. مش وحشه علشان بنقعد لوحدنا.. هي وحشه علشان بنقعد مع نفسنا

لذلك لن تراها تجلس داخل منزلها، كانت مع خروج الشمس كل صباح تخرج وتجلس على عتبة بيتها. فهي تكره الوحدة، تذكرها بالذكريات، والذكريات دائما مؤلمة، لأنك لا تفتش في الذكريات إلا عن الذي يؤلمك، والوحدة تحب الألم.

خرجت في الصباح وجلست على عتبة الباب، يوما مشمسا من أيام الصيف الحارة، دخل عليها صبي في العاشرة، وعندما وقف لم تدع له الفرصة ليقول أي شيء

- عايز ايه يلا؟

كتنت صدمة للصبي الذي وقف لتوه وفتح فمه ليقول السبب الذي أتي به إليها، بعد صمت الصدمة قال

- عايز كيس عيش.. بس يكون طري

لم ترد، قامت على مهل وذهبت بجوار المنضدة الموجودة في منتصف الصالة واختارت كيس خبز من الموجود أمامها ثم استدارت فتفاجأت بالصبي الذي أصبح خلفها

- ايه اللي دخلك هنا؟.. خد الكيس اهه.. امشي يلا

أخذ الصبي منها الكيس وتحسسه فتغيرت ملامحه وقال

- ده مش طري.. نقي واحد طري

أحمر وجهها، ارتفعت يدها للأعلى ثم لسبب ما هبطت ببطء وقالت بصوت عال

- امشي يلا بدل ما أخده منك.. ولا تطول طرى ولا ناشف

يعلم جيدا أنها تستطيع فعل ذلك، أنها لا تخاف من العواقب، ربما لأنها لا تفكر فيها، استدار الصبي بخيبة أمل وانصرف، اختفي بجسده الضئيل في أشعة الشمس.

جلست على الأريكة، فشعرت بوجع الراحة يمشي ببطء في جسدها، هذا الشعور المحبب للنفس، إنه موجع لكنه مريح، محبب، ربما أرهقها هذا المشهد الماضي مع ذلك الطفل، هي الآن لا

تستطيع بذل أقل مجهود. بعد أن شعرت بالراحة خرجت وجلست على العتبة كعادتها، وتذكرت زوجها -الله يرحمه- عندما رآها وهي صغيرة، بعدها بأيام قليلة طلب يدها من والدها، حدث ذلك في الصعيد .

لم تعد تتذكر اسم بلدتها التي ولدت فيها، لكنها تتذكر جيدا عندما جاءت إلى هذه البلدة الريفية مع زوجها وابنها، حدث ذلك بعد خمس سنوات من الزواج، بعد أن جاءت للقرية أصبحت معروفة للجميع، ربما لهذا الوشم المميز على جبينها، وهي عبارة عن نقطتان يتوسطهما خط طولي، مات زوجها بعد ذلك بقليل، وسافر الولد الوحيد وانقطعت أخباره، ومن يومها وهي وحيدة.

أجبرتها الشمس أن تنظر في الأرض وتضع يدها اليسري فوق حاجبيها لتبحر أكثر في الذكريات، لكن فجأة انزاح وهج الشمس، رفعت رأسها لترى هذا الجسد الضخم الذي وقف لتوه أمامها، أنها أم الطفل الذي أخذ كيس العيش منذ دقائق، وهي الآن تحمله، ربما لا يعجبها وجاءت تستبدله، فلم تدع لها الفرصة كي تقول أي شيء

- شوفي يا أم محمود.. كيس العيش مش راجع

لم تتكلم ولم تتبدل ملامح أم محمود، وكأنها كانت تتوقع، ثم قالت

- بقولك إيه.. أنا حلمت خير اللهم اجعله خير وعيزاكي تفسريهولي

عندما سمعت بأمر الحلم أخذتها وأجلستها ثم قالت بابتسامة

- خير؟

- حلمت خير اللهم اجعله خير ان اني مع ابو محمود في الغيط.. وبعدين لقيت حمام اسود طاير وفي وسطهم حمامه بيضا.. وزي مايكون الحمام ده نزل أرض جارنا محمد أبو سالم.. والحمام الاسود اتلم على الحمامه البيضا وكلها.. شويه ولقينا الناس حفرت قبر وقالت لازم نلم عضمها وندفنها.. اني استغربت وقلتلهم دي حمامه؟.

معنى هذا الحلم لم يكن خيرا قط، والدليل هو هذه العلامات الغريبة التي اعتلت وجهها قبل أن تقول

- بصي يا ام محمود انا هقولك اللي فهمته وامري لله.. فيه واحد أو وحده هتموت قريب.. وهيكون مشهود له او لها بالخير والجنه

لم ترد أم محمود، قامت صامته ووضعت كيس الخبر وأخذت غيره وذهبت.

مر الوقت عليها بطيئا كالعادة، يوم، اثنين، لم يحدث شيء، مر

الوقت وقد نسيت الحلم بنفس السرعة التي نسيت بها ماضيها وزوجها وقريتها التي ولدت فيها، حتى الوشم الموجود في وجهها نسيت سببه، لكنها متأكدة أنها كانت تعلم منذ وقت طويل.

لماذا نسيت ماضيها؟، قبل أن تجيب على هذا السؤال سمعت طرقا مستمرا على الباب، فات وقت طويل حتى وصلت إلى الباب وفتحته لتجد هذه السيدة ترمي إليها بهذه الجملة ثم تجري

- الشيخ سعيد مات

ألم يكن الشيخ سعيد هو الذي مر عليها منذ ساعات عندما كانت تجلس على العتبة؟، انه موت الفجأة بلا شك، ارتدت السواد ثم ذهبت لبيت المتوفى، جيش من النسوة يجلسن على الأرض، ما إن جلست وبدأت في عزف نحيبها الذي يصم الآذان، صوت رفيع، مؤذ، وعال، لا يستطيع تحمله بشر، بعد لحظات بدأت النسوة في تقليدها، لكن كان لها الغلبة، لما لا وهي التي تعودت على فعل ذلك منذ أتت إلى القرية، هي تفعل ذلك كثيرا. يذهب إليها أحد أقارب المتوفى لتأتي للعزاء، لتشجع النسوة على النحيب والمناحة.

بعد أن انتهى العزاء، ذهبت نصف النسوة إلى بيوتهن، وذهبت هي الأخرى بعد أن ضاع صوتها في المناحة التي كانت بطلتها بلا منازع.

الآن على الفراش، لماذا لا تسمع شيئا، ومن هذا الرجل الذي يمشي على عكازين بتمهل، هل هو زوجها؟، لقد تغير، أو هي التي نسيت شكله، ماذا يحدث؟، ولماذا هذه الابتسامة الغامضة؟.

كان عزائها صامتا، النسوة يجلسن بهدوء، منهن من يبكي ومنهن من أكتفين بالمشاهدة والتعجب على حال السيدة التي كانت قد قلبت العزاء من السكون والهدوء إلى الصياح والمناحة منذ قليل.

الطريق لعم عرفة

أعشق الجلوس بجانبه، أفعل المستحيل كي أقف أمامه مباشرة، فيشير إلى بطيبته أن أجلس بجواره. ليس الجلوس بجواره بالشيء الهين، فكل هذا اللكز والضرب من الخلف وأنا في طريقي إليه من الجالسين لا يثنيني عن فعلها في كل مرة.

أنا أعشق الجلوس مع كبار قريتنا من الرجال، فهم يتحدثون في كل شيء، وأنا بقامتي الصغيرة أنظر إليه بإعجاب وهو يتحدث بصوت خفيض يسمعه الجميع، وأتساءل عن الشخص الذي صنع هذه الهالة حوله. هالة تجعل الجميع يحترمه.

لم يكن يخافه أحد لكن الاحترام والتقدير هو من يجبر الجميع على الصمت عندما يفكر هو في الحديث، يعرف الجميع أنه إذا

تحدث فسيقول الحق، لذلك كانت كل مشاكل قريتنا أمامه.

لم يكن قاضيا، لكنه يعرفه الحق ويتبعه، فرق بين من يعرف الحق، ومن يعرف الحق ويتبعه، فكلنا نعرف الحق ولكن إتباعه مرهق، الجلوس مع الكبار أيضا شيء صعب ومرهق، وخصوصا إن كان بجوار عم عرفة.

تكاد أمي تشق جلبابها من الغيظ إن علمت أنني ذهبت إليه، هي لا تكرهه، لكن تخاف علي من الطريق الذي أسلكه بسبب وفاة أبي فيه، مات على هذا الطريق فجأة، لم يعترضه أحد كان يمشي ثم سقط، فقط، ولكن أمي تؤمن بأن في الطريق شيئا ما، ثم تتمتم "بسم الله الرحمن الرحيم.. اللهم احفظنا"، ثم بعد أن تهدأ تترجاني وتكاد تقبل أقدامي لعدم الذهاب إلى هناك.

لو تستطيع أمي لذهبت بنفسها إلى عم عرفة وقبلت يديه وطلبت منه أن ينقل جلساته تلك إلى بيتنا، لكن الخوف من هذا الطريق يمنعها، ثم أن عم عرفة لا يمشي في حينا، ليس لأنه يخاف من شيء ما، ولكنه لم يكن له مآرب يقصدها في حينا.

أنا لا أستطيع أن أمتنع عن الذهاب، وأمي لا تستطيع أن تجلس في البيت وهي تعلم أنني أمشي في هذا الشارع، قلت لها أنني لن أذهب وحدي فلم توافق أيضا

- حتى لو اخدت البلد كلها معاك.. مش هتمشي في الشارع ده.. يعني مش هتمشي في الشارع ده

إن لم أذهب اليوم، فلن أستطيع الامتناع غدا، حتى لو لم أذهب غدا، فلن أستطيع الامتناع بعد غد، أنا نفسي لا أعلم لماذا؟، فلو كان هناك طريقا آخر لذهبت منه، لو كان هناك عم عرفة آخر لذهبت إليه، ولكنه واحد، واحد فقط.

ألف سلمه صعودًا *

قبل أن انظر لنفسي في المرآة، أو أرتدي ملابس الخروج، أو حتى قبل أن أعرف إلى أين سأذهب. أعيد على مسمعي بصوت عال القواعد الأربعة التي أتبعها منذ كنت طفلا تقريبا.

أولاً: أن لا أضحك بقوه مهما كان الدافع لذلك.

ثانياً: أن لا آخذ نفسا عميقا مهما كان احتياجي إليه.

ثالثاً: أن لا أنحني برأسي للأسفل مهما كانت الأسباب.

رابعاً: وهو الأهم أن لا أنسى أي من القوانين الثلاثة السابقة.

طبعاً كانت تواجهني بعض المشاكل في إتباع القواعد كسماع نكتة

* كل ما هو آتٍ حقيقي

بجانبي فبدأت أحكي لهما ما حدث، لكن قبل أن أنتهي –ووسط حشد من المصلين الذين وقفوا يتحدثون مع بعضهم خارج المسجد– رأيت الصبي يخرج. يرتدي حذائه على مهل وينظر للشارع أمامه فيراني فيعاود الضحك، أذهب ناحيته فيذهب ورائي أخي وصديقي الذين شعُرا حينما وقفت أمام الصبي أن شيئاً ما سيحدث، لم ينتظر الصبي أن أقول له شيئاً وبدأ بالحديث عن السبب في تركي للصلاة، كنت غاضباً جداً، وبرغم هذا الحشد من الناس لم يكن عندي خيار غير أن أصرخ فيه، لكن حينما ارتفع صوتي عند حد معين، بدأت أشعر بالسائل يخرج ويصعد إلى حنجرتي، سعلت وبصقته على الأرض وأنا أفكر في الذهاب للطبيب

يومها أضفت قاعدة جديدة: لا تصرخ مهما بلغت حدة غضبك.

بعد عدة ساعات كنت أنتظر في عيادة الطبيب الذي أعرفه، كنت أذهب إليه مرة كل عدة أشهر، يكشف علي بالسماعة ثم يجري بعض الأشعة في عيادته، ثم يعطني دواء يتغير في كل مرة أذهب فيها إليه. على يميني يجلس أخي التوأم الذي لا يشبهني، جسده ممتلئ أكثر مني بقليل ووجهه مستدير أكثر أما أنا فأبدو أكثر نحافة، وعلى يساري يجلس صديقي محمد أو صدام كما سماه أبوه حينما ولد أثناء حرب العراق وإيران، بجسده الرياضي ولون شعره البني الفاتح

وعيناه الخضراوان. كنا ثلاثتنا نعرف كم سيطول الوقت حتى يأتي دورنا، فلم تكن تلك مرتنا الأولي، أما المكان فهو ممتلئ دائماً بالمرضى، فنتململ قليلا ونتثاءب كثيرا إلى أن يأتي دورنا.

تذكري لهذا الطبيب ليس بسبب لحيته البيضاء الطويلة ولا بسبب علامة الصلاة الكبيرة على جبينه أو حتى بسبب تركه لنا وذهابه للصلاة التي دائما ما يتأخر فيها. أتذكره لأنه ماطل معي لفترة طويلة. فبرغم كل الأدوية التي وصفها لي والتي لم تجدي نفعاً، ورغم محاولاته الحثيثة لشرح ما يدور داخل رئتي بالورقة والقلم، كان عليه أن يحولني لدكتور جراحة سريعاً، لكن في هذا اليوم بالتحديد لاحظت علامات الحيرة تنمو علي وجهه بعد أن قلت له أن البلغم أصبح له رائحة وطعما وأنني لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك، ثم بعد أن وصف لي بخاخا قال انه لا يفهم لماذا أنا غاضب ومتجهم بهذا الشكل، وأكد لي أن مشكلتي بسيطة. أي شيء يأتي في فمك أبصقه على الأرض.

يومها كنت أتمنى أن أصرخ فيه بأنني أريد أن آخذ نفسا عميقا لأرتاح، أريد أن أضحك بدون حدود، أو أن أميل وألتقط شيئا وقع مني على الأرض، وبعد أن أصرخ بكل ما أريده، أبصق كل ما يأتي مني على مكتبه ووجهه وأتركه وأذهب، ولكن لا شيئ من ذلك حدث.

في تلك الليلة حاولت أن أستخدم البخاخ الذي ساعدني بعض الشيء في التنفس، ولكنه لم يقضي على المشكلة الأكبر، وحينما رأتني عمتي، كان رد فعلها مبالغ فيه قليلاً لأنها كانت تظن أن البخاخ ليس علاجا أصلاً، العلاج يجب أن يكون عن طريق الحقن. قالت لي يومها أنها تعرف هذا الطبيب الذي يأتي في زيارات عائلية قصيرة من القاهرة، هي لا تعرف تخصصه بالتحديد ولكنها سمعت أنه يعمل في مستشفي كبير جدا في القاهرة ومن المؤكد أنه يعرف دكتور زميله "يجب أن تذهب إليه الليلة قبل أن يسافر للعمل" هكذا قالت لي

وهكذا فعلت حينما علمت أن بيته يبعد عن بيتنا ثلاث دقائق فقط، أخذت أخي وصدام وذهبنا له، في البداية كنت أريد أن أسأله إن كان يعرف طبيبا جيدا أم لا. بعد جلوسنا خرج علينا رجلا ضخما قمحي اللون له خدان كبيران متناسقان مع رأسه الضخم الأصلع يرتدي جلباب بني واسع لا يخفي كرشه الظاهر، قال:

- مين العيان فيكم؟

رفعت يدي ببطء فأخرج من جيب "سيالته" سماعة طبية واتجه نحوي، لمحت أحمد وصدام وهما ينظران لبعضهما ويبتسمان حينما أقترب الرجل مني ووضع السماعة الطبية على ظهري وقال:

- خد نفس

لم يخطر ببالي حينما رأيته للمرة الأولى بأنه الطبيب لكني جاريته في الأمر، أخذت نفسا ولكن بحذر كالمعتاد، فأعاد السماعة مرة أخرى على صدري وأمرني مرة أخرى بالتنفس ففعلت، بدا أنه انتهي فطلب ورقة وقلم وكتب فيها شيئا وقال:

- الموضوع سهل خالص.. دا إنت حالتي.. بس الأول أعمل أشعه على صدرك وأدي الورقه دي لدكتور الأشعة.. لو حظك حلو هتعمل عمليه.

في صباح اليوم التالي ذهبت لإجراء الأشعة، أعطيت الطبيب الورقة فأجرى لي أشعة مقطعية على الصدر، قال لي أنني لست في حاجه لأشعة بالصبغة، وأن الطبيب الذي كتب تلك الورقة حدد بالضبط ما تشكو منه وسألني عن اسم الطبيب فقلت له أحمد الزهيري، يومها زادت ثقتي في الطبيب، فأنا –وكم كنت مخطئا– حينما رأيته لأول مرة لم أشعر بأنه طبيب ولم آخذ كلامه على محمل الجد، ولم أفكر في أمر العملية الجراحية وماذا سأفعل إن كان حظي سيئا.

يومها ذهبت إليه بالأشعة التي طلبها. نظر فيها بعد أن قربها من الضوء القادم من اللمبة المعلقة في السقف، قال لي أن حظي جيدا.

هو يستطيع أن يستأصل ذلك الجزء من الرئة، ولما بانت علي علامات الخوف أقنعني بأن الجراحة لن تطول لأكثر من أسبوع، والجرح لن يكون أكثر من ثلاث غُرز، حتى أنني مع مرور الوقت سأنسي أين كان. فقط غرزه طبية أو اثنتين تحت الإبط الأيسر لن يلاحظها أحد، هكذا قال لي وأنا -لأنني أصدق أي شيء يقال لي- اقتنعت. سيأخذون قطعة صغيرة من رئتي في حجم حبة الفاصولياء لكي لا أسعل وأبصق بلغما في كل مرة أنحني فيها أو أضحك. قال الطبيب بأنني محظوظ لأن حجم الضرر صغير جداً ولن يأخذ أكثر من نصف ساعة لاستئصاله.

كان أبي وقتها في الدنمرك ولما عرف بأمر الجراحة بدأ يبحث عن تذكرة ليكون بجواري، قال لي يومها بان الطبيب سيعتني بي وأنه سأل عن الد. أحمد الزهيري فتبين أنه طبيب كبير في قسم جراحة قلب وصدر وأعاد علي ما قاله الطبيب عن سهولة الجراحة مما جعلني أصدق وأثق في الطبيب أكثر.

عرفت أن أبي تحدث مع الد. أحمد عن نقلي لمستشفي خاص لعدم ثقته في المستشفيات الحكومية، فقال له الطبيب بأنه هو من سيجرى لي الجراحة سواء كنت في مستشفي خاص أو مستشفي حكومي وأن الخدمة في المستشفيات الحكومية والخاصة ستكون واحدة تحت

إشرافه والفرق سيكون في المبلغ المبالغ فيه الذي سيدفعه للمستشفى الخاص، وأنه رتب كل شيء في المستشفي ولا يبقى إلا أن أذهب إليها.

في الموعد المحدد ذهبت أنا وأمي إلى المستشفي، وفي المكان الذي حدده الطبيب تقابلنا وأخذنا للعيادة. وبرغم كل تلك الحالات التي كانت تنتظر دورها في الخارج دخلنا في غرفة الكشف، كانوا ثلاثة من الأطباء الشباب يلتفون حول مريض ما، ولما أصبحنا في الداخل اقترب منا طبيب شاب والقي علينا السلام مبتسما، عرفني عليه الد. احمد بان هذا هو الد. إيهاب المسئول عني، ولما عرف أنني "الحالة" أقترب مني ومد يده بالسلام وقال لأمي

- خلاص كده.. حضرتك تقدري تروحي البيت

لم أكن أنا ولا أمي نعلم بأنني سأبقي في المستشفي من اليوم، ظننت أني سأعود للبيت وأرجع للمستشفى في اليوم التالي بالملابس وعندها ساكون جاهزا للجراحة. الطبيب الشاب عرف فيما نفكر من نظراتنا أنا وأمي فقال

- لازم علاء يتحجز دلوقتي في المستشفي لأن الجراحة هتكون في أسرع وقت.. تقدري تبعتي حد يكون رفيق له ويكون معاه لبس وأي حاجه هيحتاجها

تَركتُ أمي بعد سلام مرتبك وسط الأطباء والمريض الذي ظهر عليه

الاستياء بعد أن أهمله الأطباء الشباب حينما دخل عليهم الد. أحمد ثم تركت الجميع وذهبت مع الد. إيهاب إلى عنبر جراحة القلب والصدر في الدور السابع، كان الد. إيهاب شابا وسيما في أوائل الثلاثينيات لطيف جدا في معاملته مما جعلني أشعر بالراحة قليلا، قال لي أن "هذا ليس العنبر الخاص بجراحة القلب والصدر، هذا عنبر مرضى السكر، أما جراحة قلب وصدر فهو في الدور الثاني ولكن يتم تجديده. سيصبح أكبر وسنحصل على معدات متقدمه جدا". كان يحكي لي وهو مبتسم ويهرول إلى السلالم بعد أن تأخر الاسانسير .

في عنبر مرضى السكر أو جراحة القلب والصدر أشار على اقرب فراش بعد الباب وقال أن هذا هو الفراش الخاص بي

- ستأتي حالا ممرضة.. وأنا رايح للعيادة

ذهبت للفراش وجلست كأن الد.إيهاب كان يأمرني وليس لي الحق في اختيار فراش آخر، كنت أحاول أن أركز على أن هذا لن يدوم لأكثر من أسبوع، يوم أو اثنين وسأجري الجراحة وبعدها بثلاث أيام سأخرج من هنا، أنا أستطيع أن أخرج قبل ذلك إن أردت. ارتحت جدا لهذا الخاطر وبدأت أشعر بما هو حولي.

العنبر عبارة عن ثماني أسِرَّة، أربعة على كل جانب، أما الحائط المقابل فتوجد فيه نافذة تحتل معظم مساحته، على أحد الأسِرَّة

يجلس شاب سأعرف فيما بعد أن أسمه مينا يبدو أنه يعاني من متلازمة داون، ولكن حينما تحدثت معه كان شابا طبيعيا خفيف الظل، في الفراش القريب من النافذة العملاقة كان ينام رجل سبعيني وبجواره ابنه حمزة، وفي الفراش المقابل للرجل السبعيني كان ينام أغرب رجل رأيته في حياتي "كخه" هكذا قال لي أسمه ولم أعرف أسمه الحقيقي أبدا

بعد هزات الرأس والابتسامات التي تحل محل السلام جاءت المرضة. سمراء قصيرة وصغيرة الحجم وأسنانها الأمامية العليا مفترقه، أخذت بياناتي وأحضرت علبة بلاستيكية صغيرة وقالت أن أصعد على الفراش وأهبط برأسي للأسفل لأنها تريد بعض البلغم لفحصه، ابتسمت وأخذت نفسا عميقا فسعلت وبصقت كمية كبيرة بالمقارنة لحجم العلبة، بعد أن تفاجأت وعادت برأسها للوراء وفتحت عينيها واسعا قالت.

- بالسهولة دي؟

شرحت لي أنهم سيفحصون تلك العينة وبناء عليها سيتم تحديد العقار المناسب لحين إجراء الجراحة. حينما تركتني شاهدت شابا يقف بجوار الحائط خارج العنبر. لم أكن أري غير جانبه الأيسر ونصف وجهه ولكنه كان اسمر اللون هزيل القامة يضع يده على

صدره وكأنه يريد أن يشقه نصفين، لما رآني التفت نحوي فرأيته يمسك خرطوما مجوفا يمتد من تحت قميصه ويلتصق بصندوق بلاستيكي اسطواني الشكل يمتلئ بسائل أحمر. بدء يمشي ناحيتي ببطء، ولما أخذ وقتا طويلا في المشي حاولت أن أساعده حتى وصل إلى فراشي.

- أنا علاء من قنا

- وأنا كمان.. بس من المنصورة

كان يتحدث بصوت خفيض ذو بحة واضحة، سألني عن السبب فقلت له أنهم سيستأصلون جزء من رئتي، صمت قليلا وكأنه يحسب رقما صعبا في رأسه، أظن أنه كان يريد أن يحكي لي ما أنا مقبل عليه ولكنه آثر السكوت بصعوبة ما اضطره لجز شفتيه السفلي وقال

- متخليش حد يشفطلك.. لو حد شفطلك هتموت

قبل أن أسأل علاء عن التشفيط، وكيف سيقتلني؟، ولماذا سيسمح الأطباء بذلك من الأساس؟، حكي لي أنه كان يعمل في مصنع أسمنت وأن المصنع بالتأكيد وراء كل ذلك، وأنه حينما يخرج سيعود مرة أخرى للمستشفى بعد عدة أشهر لاستئصال جزء آخر من جسده لم أعد أتذكره

حمل علاء الخرطوم فارتفع الصندوق البلاستيكي عن الأرض وبدأ

في سيرة. فسألته

- هو الخرطوم ده علشان ايه؟

- ده علشان يطرد الهوا والدم الفاسد من الرئه.. انا في العنبر اللي جمبك هنا لو عُزت حاجه

خفت أن أسال علاء عن السبب لأنه من الواضح أن الإجابة ستكون أنهم استأصلوا جزء من الرئة، فكرت في كلام الد. أحمد مرة أخرى، الجراحة ستكون سهلة وسنستخرج حبة الفاصولياء تلك وستنتهي من كل ذلك في أسبوع، وحتما جراحة علاء تختلف عن جراحتي فهذا الشاب كان يعمل في مصنع للأسمنت، وأنا في المقابل لم أدخن سيجاره واحده في حياتي، حتما ستكون جراحتي مختلفة تماماً

حاولت أن أتمدد على الفراش قليلا قبل أن أتحدث مع أمي في الهاتف فنادي على "كخه"

- إنت يلا يا سُفيف

كان ينظر لي ثم ينظر للنافذة العملاقة ويقول

- تعال أتفرج على العيال اللي بتلعب كوره ف الشارع

كنا في الدور السابع والنافذة العملاقة بها حاجز حديدي مغطي من الناحيتين بحاجز حديدي أكثر ضيقا فتصبح الرؤية صعبه، ولكن من بين الفتحات تستطيع أن ترى الجامع الأزهر من بعيد وبعض

الأطفال يلعبون بالكره في الشارع فيتصاعد أصوات انفعالاتهم كلما مرت سيارة تجبرهم على وقف اللعب

- عارف ليه حاطين سياج حديد بالمنظر ده على الشباك؟

قالها كخه وهو مازال ينظر للنافذة

- علشان محدش ينط منها وينتحر.. آي والله.. ما هو لو شباك عادي مقفول بضلفتين أي حد ممكن يفتحه وينط منه.. عليا الطلاق لو الشباك ده بضلفتين لنط منه واخلص

كخه، أو هكذا يحب أن يدعو نفسه، رجل ذو بشرة قمحية ينبت الشعر في معظم وجهه. يده اليسري وقدماه في الجبس الذي استحال لونه للبني. استأذنته وذهبت للفراش للاتصال بأمي التي أخبرتني بأنها اتصلت بإبن عمتي طلعت ليأتي إلى المستشفى ببعض الملابس وسيبقى معي طوال أسبوع الجراحة وأنها أيضا اتصلت بابن عمتي الأكبر محمد الذي يخدم في الجيش في جامعة الأزهر وانه سيأتي لي حينما يستطيع.

استرحت قليلا على الفراش ولكني رجعت الى وضعية الجلوس مرة أخرى حينما سمعت مواء قطة، أدرت بنظري تحت الأسِرَّة في الأماكن التي يضع فيها المرضى أكياس الطعام والعصائر التي يشترونها من الخارج ولكني لم أرى شيئا. أنا لم أكن أتفاجاء حينما

أرى فئران داخـل المستـشفي، لكـن سـأتفاجاء ان رأيـت قطـه، كيـف أستطاعت أن تدخل؟، كيف لم يراها أحد وهي تمشي في المستشفى كل تلك المسافة؟، بعد قليل من البحث سمعـت صـوت مينـا يـضحك كلمـا رآنـي احاول البحث بين الاسرة، فيخفي وجهـه بهاتفـه كـي لا اراه. فتأكدت أنه هو من وراء صوت القطة، فنظرت له وابتسمت فقال:

- معلش بـس أنـا لازم أعمـل الحركـه دي مـع أي حـد جديـد ييجي هنا

بعد قليل جاءت ممرضة أخرى غير التي حضرت من قبـل وقالـت أنه يجب علي أن أذهب معها لعمل أشعه على الـصدر، كانـت بيـضاء تمتلـك ملامـح متناسـقة وقامـة قـصيرة ممتلئـة بعـض الـشيء وتبـدو صغيرة في السن

- اسمي شيماء ولسه متعينه قريب

ثم قالت حينما وقفنا أمام الاسانسير

- هنستنى الاسانسير.. بكره تزهق من السلالم

يومها كنت أمنع نفسي طوال الطريق من سؤال شيماء عن التشفيط الذي يقتل الناس؟ أو نوع جراحتي وهل تختلف عن جراحـة عـلاء؟. لكن خوفي من أن يتم إلصاق أنبوب في صدري وحملـي لـه كلمـا مـشيت كان يجعلني أشعر بالبكاء حتى ولو كان ليوم واحد فقط.

في تلك الليلة قبل أن يصل طلعت إلى المستشفى كنت أجلس مع مينا نتحدث عن موضوع القطة، تبين أن هذا صوته هو وليس صوت الهاتف، وأن كخه ظل يبحث عن تلك القطة يومين، وأنه "كخه" ظل يسب ويلعن المستشفيات الحكومية التي يدخلها القطط كالمرضى. لم ييأس كخه برغم حوضه المكسور وركبته التي على وشك التبديل على إيجادها، فكان يدنو بجذعه ناحية اليسار ثم ناحية اليمين وينظر تحت فراشه حتى أنه سب زوجته لما وضعت كيس الطعام تحت فراشه وقال أنه السبب في جمع القطط. في اليوم التالي قال للممرضة أن تبحث عن القطة وتطردها ولكنها قالت أنها لم تجد أي قطط في العنبر. غضب كخه من ردة فعل الممرضة وظل يسب ويلعن. في النهاية ذهب له مينا وقال أنه هو من يؤدي صوت القطة من البداية، لم يقتنع كخه بسهولة لأن صوت القطة حقيقي، فظل مينا يعيد له الصوت أكثر من مره. في النهاية أقتنع كخه وهو يقول

- يابن الكاااالب

بعد قليل جاء طلعت وهو يحمل حقيبة مدرسية بها بعض الملابس وكيس بلاستيكي به طعام العشاء الذي اشتراه قبل أن يصعد إلى المستشفي. بعد أن أكلنا عرفته على زملائي في العنبر، لم يمضي وقت كثير حتى كون صداقته مع الجميع وخصوصا مينا، وعرفت منه

فيما بعد أن أبي سيأتي غدا وسألني إن كنت أستطيع أن أخرج لاستقباله في المطار والعودة مرة أخرى فقلت له أنني لا أعرف.

أتذكر في ذلك اليوم حينما رأيت الدكتور إيهاب ذهبت إليه وقلت أنني أريد أن اذهب للمطار لاستقبال أبي وأنني سأعود في نفس اليوم، وافق بعد إلحاح وتأكيد على أنني سأعود في نفس اليوم.

في تلك الليلة اتفقت عبر الهاتف مع محمد ابن عمتي الأكبر على أننا أنا وهو وطلعت وأخي أحمد الذي سيأتي من البلد سنذهب جميعا لنشاهد مباراة كرة قدم لمنتخب مصر مع منتخب البرازيل وبعد ذلك سنذهب إلى المطار ومن ثم إلى البيت.

في اليوم التالي استيقظت على صوت ارتطام شيء في الفراش الحديدي، كانت الساعة التاسعة صباحا، ثم رأيت سيدة ترتدي جلباب بني تحمل في يدها ممسحة ومعها رجل آخر يرتدي قميص زيتي وبنطلون قماش بني مبتل حتى المنتصف. نظر لي وقال لي مستغرباً

- انت عندك السكر؟

هززت رأسي وقلت له لا، ثم هممت لأشرح له فتركني وذهب. بعد أن تم مسح العنبر وجفت الأرضية سُمح لنا بالنزول من الأسِرَّة. بعد قليل جاءت شيماء وقدمت لي الدواء ولم تنسي أن تقول لي

- الدكتور إيهاب بيقولك قبل ما تمشي لازم تاخد العلاج معاك

قلت لها أنني سأفعل فذهبت. بعد قليل استيقظ طلعت فقلت له أنه يجب أن نذهب الآن، يجب أن أخرج من هنا، فبمجرد علمي بأنني من الممكن أن أخرج من المستشفي جعلني لا أستطيع أن أنتظر أكثر، والذي أثقل الأمر عليّ كجبل هو علاء الذي لا يجلس أبدا في العنبر الآخر، فدائما ما كنت أراه يسير حاملا أنبوبا صدريا في يده. في تلك الفترة لم أستطع أن أطرد من رأسي صورتي كعلاء وأنا أمشي حاملا في يدي خرطوم متصل بصندوق مملوء بالدم، فقال لي طلعت أننا يجب أن ننتظر محمد.

كان طلعت يتحدث مع حمزة ومينا حينما جاءت شيماء وأخبرتني أنه يجب أن تأخذني لعمل أشعه، ولم تنسي أن تعيد أمر الأدوية مرة أخرى مضيفة

- مش عايزه مشاكل مع الدكتور ايهاب

بعد أن انتهينا من غرفة الأشعة وخرجنا، رأيت أربعة رجال يدفعون فراشا متحركا مستلقي عليها شخص ما مغطى بقماش أبيض، كان واضحا أنه ميت، وأنا بدون سبب نظرت أكثر فرأيت جزء من يده ظاهرة،كانت بيضاء كقطعة من تمثال شمعي فارتعدت وشعرت

بضعف في قدمي، فصعدت مسرعا للدور السابع وتوجهت لغرفة المرضات وطلبت من شيماء العلاج الذي سآخذه معي، وحينما عدت مرة أخرى للعنبر، طلبت من طلعت أن نخرج الآن فقال أن محمد لا يجيب على الهاتف، قلت له وأنا على حافة البكاء

- أنا عايز أخرج من هنا.. والنبي

داخل المستشفى كنت أشعر بأن ذراعي وقدمي مبتورتان، كنت أشعر كأنني أزحف كلما مشيت، وأنوح كلما تحدثت، ولكن بمجرد أن خرجت من البوابة الكبيرة للمستشفى، عادت إلى أجزائي مرة أخرى، مشيت بشكل طبيعي، وابتسمت وأنا أتحدث.

قال طلعت أنه شاهد قهوة قريبة من هنا وهو آتي أول مرة، سنبقى فيها حتى يأتي محمد، كان الجو هادئا وأنا من مكاني أستطيع أن أرى مؤخرة المستشفى، كانت تمتد لتسع طوابق أو أكثر وفي كل طابق كانت النافذة تحتل مساحة كبيرة في الحائط، قلت لطلعت وأنا أبتسم

- عارف ليه حاطين سياج حديد بالمنظر ده على الشباك؟

نظر طلعت إلى ما أنظر إليه ثم ابتسم، كان قد سمع هذه الجملة من قبل لكن وقبل أن يقول أي شيء قلت:

- علشان محدش ينط منها وينتحر.. آه والله.. ما هو لو شباك

عادي مقفول بضلفتين أي حد ممكن يفتحه وينط منه

ضحك طلعت وقال أن هذا كلام كخه الذي قالها له وهو يضحك عندما رآه لأول مره كما حدث معي. طلعت كان يظن أنني أضحك، وأنا بداخلي كنت أتمنى أن لا يكون هناك سياج على النافذة .

كان طلعت يجلس قبالتي يأخذ رشفات متتابعة من القهوة التي طلبها، وأنا أنظر لكوب الشاي أمامي. لم أكن وقتها أفكر في شيء بقدر ما أفكر في شعوري وقت العودة للمستشفي، قال لي طلعت وهو يذكرني بأن الجراحة ستستمر لأسبوع واحد، وأنا بهذا الشكل سأجعله أسبوعا صعبا على الجميع، تحدث معي عن أنه يجب على أن أدع كل شيء لله.

من بعيد رأيت محمد يأتي متمهلا، لم ينسى قبل أي شيء أن يعلق على مظهري

- هو أنا اللي في الجيش ولا انتا؟!!

كنت أبدو شاحبا وقتها، فحكيت له أن جو المستشفى يمُرض وأن الله وحده يعلم كيف سيمر هذا الأسبوع. يتمتع محمد بحس فكاهة رائع وحاول بمزاحه طوال اليوم في إبهاجي وتأكيده على أنه سيكون موجود معي طوال الأسبوع. يبدو محمد أسمر وأطول من المعتاد ربما بسبب الخدمة العسكرية ولكنه مازال يمتلك حسا فكاهيا عاليا.

انضم أخي أحمد إلينا فذهبنا لرؤية المباراة ثم بعد ذلك اتجهنا للمطار. انتظرنا أبي حتى خرج، قلت له أنه يجب على العودة للمستشفى مرة أخرى فرفض، قال أنني سأذهب معه للبلدة وغدا بعد صلاة الجمعة سأعود مرة أخرى، وافقت بدون أن أفكر في أي شيء، عدة ساعات أخرى خارج المستشفى هذا كل ما أريده.

لم أعد أتذكر كيف مضت الليلة، ولكني وقتها عرفت قيمة فراشي فنمت ليلتها بعمق، في اليوم التالي صلينا وعدنا مرة أخرى، أتذكر جيدا كيف بدا أبي حينما شاهد المستشفى لأول مرة، وحينما شاهد الأسرة، وتحديدا كيف رأي عامل النظافة يغسل الأطباق التي يوزع فيها الطعام، أمام العنبر مباشرة.

كنا قد وصلنا للمستشفى في الساعة الخامسة أنا وأخي أحمد وأبي وكان معنا طلعت ومحمد، وحينما مررت من البوابة الرئيسية عدت مبتور الأطراف مرة أخرى، أصبحت أزحف وأنا أمشي، وأسمع نواحي كلما تحدثت، حتى أبي شعر بأن شيئا مختلف حدث لي.

جاء الد. إيهاب لي في العنبر وقال لي أن أذهب معه، أخذني إلى غرفة المرضات، رأيت سيدة ترتدي البالطو الأبيض، عرفت أنها ستكون ضمن فريق الجراحة، سألتني عن إسمي وسني وهل أجريت جراحة من قبل فقلت على التوالي

- علاء عبد الباقي ١٩ سنه.. عملت اللوز قبل كده

ابتسمت وقالت أنها تقصد جراحة حقيقية فارتبكت وقلت لا، علمت من الدكتور إيهاب أنها طبيبة التخدير.ثم أخبرني وأنا أعود أنني ربما سأجري الجراحة غدا، الأمر عائد لطبيبة التخدير لتفاضل بيني وبين مريض آخر.

قلت لأبي ما حدث فتفاءل وقال أن الأمور تسير بسرعة وهذا جيد، هو أيضا كان لا يريد البقاء في المستشفى لفترة طويلة، وأضاف أن أمي ستأتي صباحا لتكون معي.

أمضي أبي الليلة في مسجد قريب من المستشفى مع محمد، حاول في البداية أن يبقى معي لأطول فترة ممكنه لكن المرضة قالت أن وقت الزيارة انتهى وأنها ستسمح لفرد آخر مع الشخص المرافق ليبيت معي –وهذا طبعا يعود لفضل الدكتور أحمد– ففضل أبي أن يبيت أخي أحمد، أما أنا فحاولت أن أنام ولكني لم أستطع، كان طلعت وأحمد يستلقيان على الفراش المجاور، وكنت أنا أفكر في الطبيبة التي ستقرر موعد الجراحة

- تخيل ركبولك خرطوم زي علاء؟

لا أعلم هل صرخت في طلعت حقا أم اكتفيت بالصراخ فيه داخل رأسي ولكن أحمد تدخل وقال

- لا ياعم.. هو زي ما الدكتور أحمد قال.. وبعدين يعني الراجل هيكذب ليه؟

لا أتذكر هل تحدثنا أم لا ولكن ما أذكره جيدا هو تقلبُي الدائم على الفراش المغطي بطبقة جلدية تجعل ملابس النوم تبتل من العرق.

تركتهم وذهبت لأقف أمام النافذة، الهواء الآتي منها بارد ويريح، أيقنت في تلك اللحظة أنني سأشفى إن تركوني أمشي في الشارع الآن.

رأيت كخه يرتشف من زجاجة عصير حينما رآني، ربما كان يعرف بأنني سأجري جراحة غدا فحاول أن يخفف عني فحكي لي انه يعمل سباك، وفي يوم شؤم ابن كذا ذهب للدور الثامن لإصلاح شيء ما، وفي النافذة المطلة على الشارع حاول أن يقف عليها ليمسك بأنبوب فلم يستطع، وجد حبلا متدلي من الدور الأعلى فحاول أن يتمسك به ولكن الحبل لم يكن مربوطا بشيء فهوى من الدور الثامن على جزع شجرة ثم على سيارة تاكسي مركونة تحتها

- أنا كنت حاسس ان الحبل ده مهوي.. وبردو مسكته.. نصيب

عاني كخه من كسر في الحوض والقدمين وله جراحه تبديل ركُبه سيجريها قريبا، اكمل كخه حديثه هو يضحك.

- خدوني على مستشفى خاص والدكتور جابلي انبوبه وحط عليها ملين فقلقت.. قلتله هتحطها فين يادكتور.. المهم بعد خناقة حطهالي فالانبوبه بقى فيها دم فقالي الحوض مكسور.. انا قلتله لا يادكتور الحوض سليم.. شخط في وقال وانت بتشتغل ايه بسلامتك.. قلتله انا سباك.. الدكتور فطس من الضحك

كان كخه يضحك بصوت عال فجاء حمزة ابن الرجل السبعيني وقال بصوت خفيض أن أباه يحاول أن ينام فتأسفنا وتركتهم وذهبت للفراش. تركت أحمد وطلعت يتحدثان وسقطت في النوم فجأة، وفي الحلم وجدت نفسي ميتا في مقابر لا أعلم عنها شيئا لم تكن تبدو كمقابر قريتنا، كانت تتميز بقبور ضخمة وعلى شواهدها تمتد سلالم إلى السماء، المنظر مهيب جدا وأنا محاط بكفن أبيض ضِيق والقطن في فمي وأنفي فلا أستطيع التنفس، كان العرق يهبط على عيني وأشعر به يتجمع على أنفي، نزعت الكفن من عليّ بصعوبة حتى دمت أطراف أصابعي، أيقنت وقتها أنني مت ويجب أن أفعل شيئا. فكرت في أن الميت يصعد إلى السماء، وبمجرد ما أن خطرت في بالي تلك الفكرة حاولت أن أعثر على سلم لأصعد لكن الجو كان مظلما جدا أو أنني لا أستطيع أن أفتح عيني، حاولت أن أتحسس القبور إلى أن وجدت سلما فحاولت استعماله، مسكت بطرف يدي برغم ألم أطرافي

ولما وضعت قدمي على الدرجة الأولى ورفعت جسمي لأعلى انكسرت الدرجة الخشبية تحت قدمي، بحثت من جديد على سُلم آخر وحاولت من جديد ولكن لم أستطع، حاولت أن أنظر حولي وأفكر من جديد. يجب على الميت أن يُدفن أولا قبل الصعود للسماء، حاولت بسرعة أن أجد قبرا مفتوحا لأدفن فيه فلم أستطع، أخذت صخرة من الأرض واتجهت لكسر الأبواب الصخرية للمقابر -هذه التفاصيل بالتحديد كتبتها في رواية تحت أرض كوبنهاجن-. برغم الألم المتصاعد في صدري وأناملي الدامية وقفت أمام باب صخري وبدأت أضرب على الباب فيتفتت الحجر من يدي أو تهبط الضربة على أصابعي فتؤلمني أو يدخل الحجر المتفتت في عيني. أعاود البحث مرة أخرى عن حجر أكبر وأزيد الضرب على الباب إلى أن يفتح، ادخل القبر فأجده ضيقا، هياكل عظمية فوق بعضها البعض، والحشرات تزحف عليها فأقول لنفسي هذا ليس المكان المناسب للدفن، أذهب مرة أخرى وكلي إصرار للبحث عن قبر أفضل، ويتكرر معه الضرب والألم إلى أن يفتح الباب، حاولت عدة مرات، كان الألم يتزايد في صدري وأطرافي، إلى أن وجدت قبرا واسعا مضاء من الداخل فرضيت به.

قمت من النوم صباحا ووسادتي مبتلة، ولا أستطيع تحريك يدي

اليسرى، كانت الساعة الثامنة حينما أعطاني الدكتور إيهاب زجاجة حمراء ولها رأس دائري وقطعة قطن، قال لي أن أمسح جانبي الأيسر بهذه المادة جيدا وحينما أنتهي أرتدي تلك القماشة الخاصة بغرفة العمليات. لم أقل شيئا، أخذت ما أعطاني إياه ودخلت الحمام صامتاً

كنت أفكر فيما رأيته في الحلم منذ قليل، وفي الوقت الذي رأيته فيه، لا شك أنني سأموت أثناء الجراحة، سَرت رعشة في جسدي حتى بلغت شعر رأسي، وكنت أرى صدري يعلو ويهبط بسبب ضربات قلبي، كنت أشعر بأن قلبي سيتوقف الآن، الحلم كان حقيقيا ومؤلم وأتذكره حتى لحظة كتابة هذه السطور، وأظن أن هذا الحلم سيبقى في ذاكرتي إلى أن أموت. فعلت ما قاله الد. إيهاب ثم ارتديت الزى الخاص للمرضى أثناء الجراحة،كان يمتد حتى فخذي ويغلق من الخلف ولكنني مع ارتباكي لم أغلقه، لما رآني أبي ضحك وأغلقه لي وهو يقول

- كويس انك لابس تحت

لم أرد، ولكنني كنت أعاني، كنت خائفا مما أنا مقبل عليه وأحارب شعورا داخليا رهيبا كي أخبره بالحلم، ولكن لا أعلم ما الذي منعني، كان الد. إيهاب يقف غير بعيد فنادي علي، وقبل أن ألتفت إليه لمحت أبي مازال مبتسما، فسرت وراء الد. أيهاب ولم

ألتفت إليه، ولكني كنت أشعر به وهو يبدأ في البكاء.

وبينما كنت أهرول وراء الد. إيهاب الذي كان يجري فيتطاير البالطو الأبيض وراءه، حاولت أن آخذ نفسا عميقا لكي أهدأ قليلا، لكني لاحظت بأن لا شيء يصعد إلى حلقي، أخذت نفسا عميقا مرة أخرى وأنا أكاد لا أصدق، جريت ووضعت يدي على كتف الدكتور إيهاب وقلت له حينما نظر لي أن العلاج الذي أخذته في المستشفي جاء بنتيجة، فأنا لم أعد أعاني من البلغم، أنا لا أحتاج للجراحة. اقترب الدكتور إيهاب مني أكثر وقال:

- هو لعب عيال.. وبعدين ممكن دكتورة البنج تختار المريض التاني

أعطاني ظهره وبدأ ردائه يتطاير في الهواء مرة أخرى، نزلنا من الدور السابع إلى الدور الثاني، على الباب لوحة مكتوب عليها غرفة العمليات، يجلس تحتها رجل مازال يتناول إفطاره، دخل الد. إيهاب وأنا وراءه، فمررنا في ممر بطول ثلاثون مترا تقريبا، لم تكن الإضاءة كابية أو مظلمة، ولم تكن الرائحة منفرة، ولكني شعرت بذلك. بعد أن انتهت الثلاثون مترا يأتي منعطف على اليسار فثلاثون مترا أخرى، مشيت فرأيت مسجدا صغيرا على اليمين ثم ثلاث مقاعد حديدية مقابل غرفة بباب زجاجي كبير، أمرني الد. إيهاب

بالجلوس فجلست، لم يكن أحد غيري ويبدو أن لا أحد يأتي هنا فزاد إحساسي بقفر المكان وانعزاله، بعد قليل جاءت ممرضة وقالت لـي أن أدخل الغرفة، كانت غرفة واسعة، يوجد بها فراشان عاليـان بجـوار كـل منهمـا أسـلاك وشاشـات. كانـت الغرفـة تبـدو كغـرف الإفاقـة، انتظرت طويلا حتى أتي زوج خالتي ، كان رجل دين حـافظ للقـرآن، مال علي وقال وهو يبتسم:

- إحنا طبعا عارفين إن العملية سهلة وبسيطة.. بس محـدش يضمن الظروف.. مش كده ولا إيه.. قول ورايـا.. أشـهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله

لا أعلم هل سمع اهتزاز صوتي وأنا أقولها أم لا؟، هـل شـعر بكـم الرعب الـذي شـعرت بـه أم لا؟، لم أحـاول أن أتماسـك، فبمجـرد أن خرج من الغرفة بكيت. وقتها كان رأسي فارغا، فلم أسأله كيف أتي؟ وكيف عرف مكاني؟ وهل أتت معه أمـي أم لا؟، لم أفكـر في أي شـيء في تلك اللحظة، الموت فقط هو ما خطر ببالي، فقد كنـت أبكـي لأنـني سأموت وحدي في ذلك المكان المقفـر، سـأموت في مستـشفي ولـن تكـون أمي ولا أبي بجواري. في تلك اللحظة عرفت ما مدى صعوبة أن تموت وحيدا.

لم أستطع أن أتوقـف عـن البكـاء حينمـا أتـت ممرضـة واقتربـت

مني، حاولت تهدئتي ولكنها فشلت، فأمرتني بأن أنام وأمد ذراعي اليمنى، فعلت ما قالته لي، نمت على الفراش المهترئ ومددت ذراعي ناحيتها فظلت تدك الإبر فيتصاعد الألم تدريجيا، حاولت أكثر من مرة ولكنها على ما يبدو كانت تفشل، فالتمتمات التي كانت تتصاعد منها كلما دكت الإبرة جعلتني أقلق أكثر، وقفت قليلا ونظرت للأرض وفكرت في شيئ، ثم قالت كمن بدأت تفقد الأمل.

- لف ونام بالعكس وهات دراعك الشمال

هذه المرة نجحت من المحاولة الأولى، ثم تركتني وذهبت، انتظرت قليلا حتى أتي الدكتور إيهاب، أمرني بأن اتبعه ففعلت، دخلت غرفة أخرى، وفي اللحظة التي خطوت فيها داخل غرفة الجراحة بدت الدنيا لي كهم كبير سأتخلص منه، وفكرت في أنني حينما أغمض عيني وأفتحهما، سأعرف إجابات كل شيء، ارتحت لهذا الخاطر حتى أنني ابتسمت للأطباء الموجودين في الغرفة قبل أن يضعوا القناع على وجهي فيحل الظلام الثقيل.

يقول بعض الناس أنهم أثناء إجراء جراحة لهم، رأوا أنفسهم يهبطون في نفق طويل مضاء في نهايته، ثم آخرون وصفوا أنفسهم كأنهم سابحون عند سقف الغرفة، يرون كل شيء من أعلي حتى أنفسهم وهم ممددون على الفراش، ويؤكدون على قوة الشعور الذي

انتابهم، تلك الراحة التي استولت عليهم حد أن بعضهم صرخ غاضبا في الطبيب وهو يحاول أن ينعش قلوبهم ليعيدهم للحياة، آخرون رأوا أنفسهم في حقل أخضر جميل وهم يقفون على ممر أو جسر صغير ويقف في الناحية الأخرى منه أناسا من عائلاتهم قد ماتوا ويدعونهم لعبور الجسر، وفي اللحظة التي يقرروا فيها العبور تأتي قوة ما وتسحبهم للخلف.

أنا لم أشعر بشيء أبدا، كان هناك ظلام ولكنه أخف من الظلام الذي كنت أشعر به من قبل، أسمع تكات متواصلة من جهاز على يميني، وأشعر بقناع على أنفي وفمي، وهناك شيء ما ملتصق بإبهام يدي اليسرى، رفعت رأسي فتبين لي بصعوبة أنني في غرفة الإفاقة التي كنت فيها قبل الجراحة وأنني لم أمت، فشعرت بالظلام مرة أخرى.

استيقظت على الظلام الخفيف مرة أخرى، أحاول أن أميز أي شيء في الظلام ولكني عجزت، كنت بصعوبة أرى الفراش المهترئ وأسمع صوت الكتروني لضربات قلبي تخرج من الشاشة، الصوت الذي سأكرهه لبقية حياتي، *تيت.. تيت.. تيت*، ثم أستسلم للظلام مرة أخرى

استيقظت فرأيت محمد يقف بجواري، سألته عن الساعة

فأجاب، لم أتذكر كم كانت ولكننا كنا ليلا، قال لي إن كنت أريد أن أرى أمي فأجبت بنعم، وذهب، فشعرت بالظلام مرة أخرى

استيقظت وأمي بجواري، كانت تمسك بيدي فوضعت يدها بجوار رقبتي ونمت، بعد قليل أيقظتني وقالت أنني أمسك يدها بقوة لمدة ثلاث ساعات وأن قدميها آلمتها وأنها ستنام قليلا على الفراش الصغير، فتركت يدها وشعرت بالظلام مرة أخرى.

استيقظت على شيء ما مزعج في يدي اليمنى، شيء ينتفخ وينتفخ حتى سمعت صوت انفجار، استيقظت أمي على الصوت وجرت عليّ ومسكت رأسي، قلت لها أنني بخير. حاول محمد أن ينادي على أي شخص فلم يجد أحدا، كنت أعرف أننا في مكان قفر فسقطت في الظلام مرة أخرى.

استيقظت بعد قليل على طبيب يقف بجواري، يقول أن جهاز قياس الضغط انفجر، كانت أمي تقف عند قدمي تدلكها بعد أن قال لها الطبيب أن المريض يشعر براحة حينما يقوم شخص ما بذلك، وأنا فعلا كنت أريدها أن لا تتوقف.

استيقظت فبدأت أري بوضوح، كان ضوء النهار موجودا فأرى الجميع جيدا، لكن لا أمي ولا محمد كانا موجودين في الغرفة، كانت شيماء تجلس على الفراش الصغير تتناول طعام الإفطار ثم رأيت

الشخص الذي كان يقوم بغسل الأرضية في العنبر يغسل أرضية الغرفة بنفس الملابس المبتلـة، قالـت لـي شـيماء أنـه حـان الوقـت لأن أعـود للعنبر، حاولت أن أقف فجاء الرجل ورفع الغطاء ونزع قسطرة البول انتزاعا، حينها شعرت بألم خفيف اثنـاء سـحب القـسطرة لكـنني لم أكترث وحاولت أن أقوم من الفراش، ولكنني حينما حاولت أن أعتدل لأجلس شعرت بشيء ما كـأنني مقيـد مـن جـانبي الأيـسر، وعنـدما كـشفت زى العمليـات عـن جـانبي وجـت خرطومـان يخرجـان مـني ويتوجهان للأسفل، عدت مرة أخرى ونمت على الفراش أقاتل كـي لا أبكي. كان الموت يبدو رقيقا وسهلا على ما أشعر به الآن.

رفعت الخرطومان حتى أستطيع أن انزل، ثـم حملتهمـا ومـشيت راضيا بهما حتى تجلس شيماء، كنت أشعر بدوار شـديد ولكـنني إلى حد ما أستطيع أن أقف باستقامة وأن أمشي، مدت شيماء يدها بقطعـة خبز وسألتني

- جعان؟

ثم عادت بيدها مرة أخرى وقالت

- آآه صحيح مينفعش

كنت وقتها أشعر بجوع حقيقي، جـوع يجعلـني أريـد أن آكـل أي شيء، لكنني مشيت وراءها مستندا على الحائط حتى خرجت من هذا

المكان الموحش لأجد الجميع في الخارج، ولكنني لم أرى غير أمي، أخذتني في حضنها فبكيت حتى بكت هي الأخرى.

لا أعلم هل بكيت حزنا لأنني أحببت إحساس الارتياح من الدنيا؟ أم أنني بكيت فرحا لأنني لم أمت؟، بأنني أستطيع أن أحتضن أمي مرة أخرى؟

اتجهت للاسانسير لكن شيماء منعتني. قالت أنه يجب علي أن أبذل مجهود في الفترة المقبلة. كنت أظن أن الأسبوع الذي سأقضيه في المستشفى سيكون عبارة عن راحة متواصلة، ولكن يبدو الأمر على عكس ما توقعت .

صعدت درجات السلالم من الدور الثاني للسابع وأنا أعاني من الدوار، أستند على أمي وشخص آخر إلى أن وصلت إلى غرفتي ونمت، بعد قليل جاء الدكتور إيهاب وأيقظني بعنف، قال لي أنه يجب علي أن أبذل بعض التمارين، أعطاني قفازين جلديين وقال أن أنفخ فيهما قدر المستطاع وأن أصعد وأهبط السلالم من الدور الأرضي إلى الدور السابع حتى أتعب، كانت طريقة الدكتور ايهاب في الحديث معي شديدة العبوس وذات لهجة حازمة سيتميز بهما طوال فترة تعامله معي، جلست على الكرسي المجاور لسريري أنظر لأطرافي الجديدة، كانت عبارة عن خرطومان صدريان ينتهيان بوعاءان بلاستيكيان لكل

خرطوم، الوعاء دائري شفاف مملوء بسائل زهري اللون سيتحول فيما بعد للأحمر بسبب الدم، في قمة الوعاء فتحتان. فتحة يدخل فيها الخرطوم ليغوص في السائل والفتحة الأخرى متروكة لكي يخرج منها الهواء المار عبر الخرطوم من الرئة.

لما عرف علاء بأنني موجود في العنبر أتي حاملا طرفه الجديد مثلي، رأيته يمشي زحفا، وينوح وهو يتحدث مثلي. كنت أفكر في اسمينا وجراحتنا ووضعنا في المستشفى، ما هي حظوظ أن يكون لنا نفس الاسم ونفس المصير؟. أما هو فكان يتمنى لي السلامة ويعيد علي نصيحته التي كنت نسيتها

- متخليش حد يشفطلك

ولما سألته هذه المرة عن التشفيط قال أنني لن أحتمله، وأكد أنني لن أحتاجه إن فعلت التمارين التي أخبرني بها الدكتور إيهاب.

بعد أن قام، تركتهم للذهاب للحمام، وكان عبارة عن غرفتان. غرفة ذات حمام بلدي متعفنة يعلو الخراء فيها لفوهة الحمام فتركتها وتوجهت للغرفة الأخرى التي احتوت حمام افرنجي، حاولت أن اجلس عليه فوجدت أنه غير مثبت في أرضية الحمام، باستثناء الرائحة فالحمام هذا كان أرحم بكثير من الحمام البلدي، ولكنني حينما حاولت أن أقضي حاجتي آلمني عضوي بقوة، فتذكرت

عامل النظافة الذي انتزع القسطرة البولية، قضيت فترة طويلة أعاني في كل مرة أذهب فيها لقضاء حاجتي .

قبل أن أعود مرة أخرى للعنبر حاولت أن أرى الجرح، لكن الشاش والقطن كانا موضوعان بعناية شديدة جعلتني أنزع اللاصق من على الجلد نزعا، أخذت بعض الوقت بسبب يدي المرتعشة حتى كشفت عن مساحة في صدري من الأمام، رأيت الجلد المشقوق شقا عرضيا يتجه إلى جانبي، لم أكن أعرف وقتها متي ينتهي الجرح، لكني كنت أشعر بالشاش والقطن يستمر إلى منتصف ظهري من الخلف ويرتفع إلى كتفي.

باستثناء هذا لم أعد أتذكر الأربعة أيام المقبلة، ربما بسبب البنج أو أنه لم تجري فيه أي شيء يذكر غير الزيارات العائلية، وصورة مشوشة لشيماء حينما تأتي بالعلاج الذي كان يحتوي حقن ما وقناع أوكسجين مرتين في اليوم، أو حينما تأخذني يوميًا في الصباح لعمل أشعة على الصدر.

لكن ما أذكره جيدا في تلك الفترة كان وجه أمي الأصفر، وجسدها الضئيل على غير العادة، أما أبي فبدا واهنا، آخر مرة رأيته فيها واقفا على قدميه حينما تركته وذهبت لغرفة العمليات، بعدها كنت دائما ما أراه يستند على الحائط أو يجلس سريعا على أي شيء.

مرت الأيام الأولى وأنا أنفخ في القفـازات الجلديـة وأصـعد الـسلالم من الدور الأول للدور السابع ثم أهبط مرة أخرى، كنـت أفعلـها أكثـر من خمس مرات يوميا، وهذا على ما يبدو لم يكن كافيـا، فكنـت أرى رد فعل الد. إيهاب الغـير راضـي، لكـني كنـت أفعـل مـا أسـتطيعه، فبرغم أنني لا أستطع أن أسـتمر في الـشهيق لأكثـر مـن ثانيـة واحـدة كنت أصعد أكثر من ألف سلمه يوميا، ولما اشتكيت للطبيب عن ضعف تنفسي قال أن هذا عادي بسبب الأنبوب الصدري.

سألت الممرضة شيماء عن المادة البيضاء في القفازات التي أنفخ فيها وهل هي آمنه؟، كان يبدو عليها أنها لا تعلم ونصحتني بـأن اشـتري بالونات من الخارج أضمن، ثم أنني لا أستطيع أن أعتمد على القفازات فهي خاصة بالأطباء وهذا مال دولة، قالت هذا وهي تضحك.

في صباح اليـوم التـالي أتـى لنـا وافـد جديـد، رجـل يبـدو أنـه في منتصف الأربعينيـات، ضـخم الجثـة، أبـيض الوجـه يـشوبه حمـرة خفيفة، يستند بذراعه الأيمن علـى عكـاز خـشبي، ويـستند بذراعـه الأيسر على فتاة في أواخر العشرينيات ترتدي خمار بـني فـوق عبـاءة حمراء زاهية، تسنده حتى يصل لأقرب فراش ثم تساعده على النوم، وتجلس بجواره وتبدأ بتقطيع الفاكهـة لـه، ولكنـه يطلـب منهـا أن تساعده في الذهاب إلى الحمام، تضع كل شيئ مـن يـدها علـى المنـضدة

بجوار الفراش وتبدأ بمساعدته، ولكن عندما يراها طلعت يذهب للمساعدة قائلا

- ارتاحي إنتي.. أنا هساعد ابوكي

يصحح له الرجل بأنها زوجته فيرتبك طلعت ولا يعرف ماذا يقول ولكنه يستمر في المساعدة، وحينما يعود مرة أخرى، يأمرها بأن تذهب إلى البيت ولا تأتي مرة أخرى إلى المستشفي.

أتت شيماء بعد قليل وأعطتني الدواء وقالت أنه لا يوجد أشعة اليوم فحاول أن تؤدي بعض التمارين، فسألتها عن التشفيط فقالت

- ده بيعملوه علشان يساعد المريض يخرج الهوا والدم من صدره

- متُعب؟

هزت رأسها بأن لا ثم تركتني وذهبت.

في المسافة بين الاسانسير والسلم، وعلى الأريكة الخشبية تحت الشباك الضخم كانت تجلس فتاة، تضم ركبتيها إلى صدرها، تنظر لشيء ما خارج النافذة، جسدها دقيق أو واهن ككل المرضى في المستشفى، يدخل الضوء في عينيها فيظهر اللون العسلي بوضوح، لما شعرت بوجودي نظرت إلى ثم ابتسمت وقالت

- ألف سلامه

رددت ابتسامتها بابتسامة، وقلت لها شكرا، أتذكرها الآن كيف بدت خائفة ومضطربة، يبدو أنها وحدها هنا، لم أجد في رأسي حديثا فتركتها وذهبت لأجد الد. إيهاب يهرول على السلم كعادته، أظهرت له نفسي كأنني أقول ها أنا افعل ما أمرتني به، لم يبدو عليه أنه أهتم بي، فقط نظر لي نظرة باردة وتركني، أكملت طريقي ولكن في هذه المرة ذهبت إلى ساحة المستشفى، ثم إلى البوابة الرئيسية، وعلى مقعد معدني جلست، أنظر للبوابة الكبيرة، أفكر بأطرافي التي تركتها في الخارج، في تلك اللحظة فكرت بالخروج، ليس الهروب ولكن فقط أن أمشي في الشارع، لكن أطرافي الجديدة منعتني، فارتضيت بالنظر عبر البوابة لألمح السيارات المسرعة أو الناس التي تجلس عليها تنتظر الدخول أو خروج المرضى، وقلت أنه مهما حدث سأخرج من هنا، لكن السؤال هو كيف؟، عاد الحلم إلى ذاكرتي مرة أخرى، كنت أريد أن أقتلعه من رأسي، إحساسي بضيق صدري والعرق المتجمع على وجهي مازال يؤرقني، تخيلت نفسي وأنا أخرج من هنا مشيا، ثم تخيلتني وهم يخرجون جثماني محمولا على الأعناق، وفهمت محمود درويش حينما قال

وأعشق عمري لأني

إذا متّ،

أخجل من دمع أمي!

الخجل حاد أكثر من الحزن، وأنا كنت خجلان من دموع عائلتي.

صعدت مرة أخرى للعنبر، ولكني في تلك المرة كنت أحصي عدد السلالم التي أصعدها فوجدتها أقل من المائتين درجة بقليل، وأنا أصعدها كل يوم لخمس مرات على الأقل، فوجدت أنني أصعد أكثر من ألف درجة سلم كل يوم.

شعرت بما شعر به سيزيف، ومدي العذاب الذي تعرض له، فكان سيزيف يحمل صخرة ويصعد بها إلى جبل وكلما أقترب من الصعود تنفلت الصخرة منه فيعود ويحملها مرة أخرى، ويستمر عذاب سيزيف هذا للأبد، أنا أيضا كنت أحمل أنبوبي الصدري وأصعد كل يوم إلى الدور السابع لأكثر من خمس مرات ولكنني لم أكن قاتلا ولا خداعا مثله.

لما وصلت للدور السابع. وفي المكان التي تجلس فيه الفتاة بجوار النافذة، كنت تقريبا لا أستطيع التنفس، حاولت في البداية أن استند على الحائط فدعتني للجلوس، فقلت بصعوبة:

- كنت فاكر اني هستريح بعد العملية.. أنا حاسس أني

اتنصب عليّ.

بعد أن ابتسمت سألتني عن الجراحة فشرحت لها، وحكت لي عن أنها هنا لأن قلبها مريض، لم أعد أتذكر ما هي العلة بالضبط ولكنهم يؤهلوها لجراحة في القلب، وأنها بعد الجراحة ستتزوج. لم أجد غير الابتسامة حينما قالت لي أن الأطباء أكدوا لها أن الجراحة خفيفة ولن تأخذ وقتا، لم أجد رد فعل آخر غير الايماء بالرأس لأنني أعرف أنهم يكذبون.

تركتها تنظر للنافذة بعد أن عرفت أن اسمها ريهام، توجهت لزاوية بجوار الحمام يستعملونها للصلاة، من هناك كنت أستطيع أن أرى العنبر الذي يبيت فيه علاء والعنبر الخاص بي، فجلست على كرسي بجوار النافذة العملاقة. كان يجلس بجواري رجل بدين، أصلع، ويبدو أنه قصير. بجواره كوب من الشاي وكيس بلاستيكي مملوء بالبقسماط، كنت في البداية أظن أنه يحب البقسماط لدرجة أنه يحتضن الكيس البلاستيكي ولكن في النهاية اكتشفت بأنه يخفيه، فكلما اقتربت ممرضة كان ينحني للأمام فيختفي الكيس تحت بطنه المنتفخ، ولما تبتعد يعيد ظهره للوراء فيظهر الكيس مرة أخرى، يغمس البقسماط في كوب الشاي ويأكل باستمتاع، ولما رآني أنظر له قال:

- بقالي كام يوم نفسي آكل بقسمات مع الشاي

حينما كان يتحدث معي ويشرح لي أنه لن يموت أن أكل ما يحبه، لم يرى المرضة وهي تقترب منه وتأخذ منه الكيس البلاستيكي، ارتعد وبدأ يهتز جسده كلما اعتلى صراخ المرضة، كانت تصرخ فيه بشتائم ودعوات بالموت، وبأنه رجل غبي ولا يستمع للكلام، وأنهم جميعا سيستريحون ان مات. وهو طبعا لم يحتمل مثل هذا الكلام، بدا صوته يعلوا هو الآخر، اجتمع المرضى والمرضات حولهما فتركتهم وذهبت للعنبر.

جاء وقت الزيارة فكان أحمد أخي بجواري حينما نادي عليه كخه، ذهب أحمد فقال له كخه أن يحضر كيس بلاستيكي. أحضر أحمد كيس بلاستيكي وذهب به ليقف بجوار كخه الذي أمره بأن يفتحه سريعا، وفي اللحظة التي فتحه فيها أحمد تقيئ كخه في الكيس، كاد أحمد أن يغمى عليه ولكنه تماسك، ولما انتهى كخه سأله أحمد من أثر الصدمة عن ماذا يفعل بالكيس فقال له كخه متهكما

- لف بالكيس على الناس!!

صرخ كخه في وجه أحمد أن يذهب به للحمام، وحينما عاد قال أنها آخر مره سيأتي فيها لهذه المستشفى بنت الكذا، وأنه تقيء في

الحمام حتى كاد أن يموت.

ظللنا جميعا نضحك ونهدئ فيه لأكثر من ساعة حتى أتى شابان أحدهما يسند الأخر، أما الذي يستند فكان هيكلا عظميا بمعنى الكلمة، أنا لم أرى في حياتي شخصا واهنا ولا ضعيفا هكذا، تبدو عيناه جاحظتان، وعظام وجهه بارزة، يرتدي تيشيرت فضفاض يخرج من تحته أنبوبا صدريا كالذي أحمله، لكن الأنبوب الصدري هذا بدا أنه متصل فيه منذ مدة طويلة، أنا لن أنسي هذا الشاب لبقية حياتي، كنت أرى ألمه بوضوح، فلم يستطع أن يجلس ولا أستطاع أن ينام فوقف هكذا صامتا رافعا يديه ورأسه إلى السماء، بعد قليل جاءت أمه وقالت له أن يجلس ليرتاح، فصرخ. لم يشتم ولم يعترض، فقط خرجت منه صرخة طويله فتأسفت له امه وقالت أنها ستذهب لتحضر الطبيب.

وقف أمامه الشاب الآخر –ربما كان أخوه– ومسح عنه العرق، لم يأمره بالجلوس ولا بالنوم، كان كلما تحرك يسارع بحمل الأنبوب عنه.

كنت وقتها أجلس على المقعد بجوار فراشي، لم أحتمل النظر له أكثر، فتركت الجميع بدعوى أني سأذهب لصعود السلم، لكني كنت أقصد ريهام، الفتاة التي تجلس تحت النافذة بجوار السلم، لكني لم

أجدها، فقابلت المرضة شيماء، كان وجهها أحمر وتتجه إلى العنبر بمشية سريعة غاضبة، لم أوقفها واتجهت وجلست بجوار النافذة التي تنظر لها ريهام وبدأت انظر للخارج مثلها.

لم أرى أي شيء في الخارج يشد انتباه أي إنسان، الشارع والبيوت والناس ولا شيء آخر، ربما تلك الأشياء كانت تشد انتباه ريهام لأنها تشعر كالسجينة. فكرت لماذا تبدوا الأشياء أكثر قيمة في اللحظة التي نُحرم منها؟. ألا يكفي أننا نُحرم منها؟

وقفت شيماء بعد دقيقتين أمامي، مازال وجهها أحمر وتحمل في يدها صندوق معدني يرتعش إثر ارتعاش يديها، قالت لي أنه ميعاد التغيير على الجرح.

في العنبر مازال محمد المسكين جالسا يساعده الشاب الذي أتى معه لارتداء قميصه، بعد قليل أتي الدكتور إيهاب فصرخت فيه أم محمد تتهمه بعدم الاهتمام الكافي، رد عليها الد. إيهاب بأنه يفعل كل ما يستطيعه وأن محمد حالته متأخرة، وبرغم ان محمد لم يكن بعيدا إلا أنه لم يلتفت حينما قال الطبيب ذلك، ربما هو نفسه يعرف.

أمرني الد. إيهاب بأن أخلع قميصي وأمر طلعت بأن يفتح كيسا بلاستيكيا ليرمي فيه الشاش. جلست على الفراش ورفعت يدي

اليسري على رأسي فبدأ الد. إيهاب بنزع اللاصق وهو يشتكي

- الدكتور أحمد قالي أغيرلك على الجرح بنفسي.. ناقص يقولي أحلقلك ذقنك

كنت أنظر لطلعت الذي كانت تنتقل عينيه برعب بين جانبي الأيسر والدكتور إيهاب، وفي اللحظة التي كشف فيها عن الجرح، أحمر وجه طلعت واستند على الحائط ولم ينتبه للكيس الذي أغلقه، وبخه الد. إيهاب وأمر شيماء بأن تمسك الكيس بدلا منه. شيماء لم تكن أحسن حالا من طلعت فبدت في حالة سيئة هي الأخرى.

بعد أن انتهوا سألت طلعت عن الجرح وكيف يبدو؟، فقال أن منظر الأنبوب الذي يمر عبر الجلد المشقوق هو ما أفزعه، أما عن الجرح فهو يمتد من منتصف الصدر حتى منتصف الظهر، ثم أردف أن الجرح لن يترك أثرا كما قال الطبيب.

بعد أن انتهي الدكتور إيهاب كانت مازالت أم محمد المسكين تدعوا على جميع المهملين بأن يبتلوا بما ابتليت به، ظلت تكرر دعوتها بينما تساعد محمد على المشي هي والشاب الذي أتي معها، تركتهم وذهبت لشيماء، سألتها عن محمد وما هي مشكلته واين يذهب، قالت أن محمد كان يعاني من المرض السيئ –لم تقل أبدا اسم المرض– والجراحة تمت لكن حدثت مشكلة أخرى. أتذكر أنها قالت

أن الرئة"بتليك" وأشياء أخرى لا أفهمها، ثم سألتها عن سبب ترك محمد يذهب إلى عنبر آخر، فقالت أنه ذاهب للبيت، محمد حالته متأخرة والمستشفى لا تستطيع أن تفعل له شيئا، ولما سألتها عن حظوظي في أن ينتهي الأمر بي كمحمد، ضربتي على كتفي وقالت

- محمد عنده مرض وحش

ولما سألتها عن سبب احمرار وجهها وارتعاش يدها قالت

- دا انا بقيت كويسه، أول مره غيرت لمريض أغمى علي وعيطت.. بس أنا مبحبش أشوف محمد.. بيصعب علي

- وأنا كمان

تركتها لأعود للعنبر، ولكن بيني وبين نفسي كنت سعيدا بأن محمد لا يبيت في المستشفى، فلا أعلم كيف كانت ستمر الأيام بالنسبة لي لو كنت سأراه باستمرار وهو في هذه الحالة.

حينما أعطيت لشيماء ظهري ومشيت بضع خطوات مبتعدا، نادت علي وقالت

- ارفع كتفك الشمال

لما تركتني وذهبت لم ابدي للأمر اهتماما، ولكن وبعد بضع خطوات حاولت أن أرفع كتفي الأيسر قليلا، لكن الأمر كان صعبا، فالشق في جانبي الأيسر يجعلني أنحني بكتفي بدون وعي مني،

فكتفاي كانا يبدوان لي وقتها متساويان.

لما سألت أمي تبين لي أنهم جميعا رأوا ذلك لكنهم لم يقولوا شيئا، كانوا يتهامسون من وراء ظهري عن كتفي الهابط، وخافوا أن أبقى على هذا الحال للأبد، فسألوا الطبيب الذي طمئنهم بان هذا وارد جدا، وشيئا فشيئا سيعود الكتف إلى وضعه الطبيعي، وأنا بدوري كلما وجدت مرآة أقف أمامها لفترات طويلة أحاول أن اضبط كتفي الأيسر ليتساوى مع الأيمن، لكنه ما يلبث أن يهبط مرة أخرى.

في الصباح قالت لي أمي -التي لم تتركني منذ اليوم الأول للجراحة فكانت تبيت في عنبر النساء- أنها وفي تلك الليلة لم تجد فراشا تبيت عليه فاضطرت أن تنام على الأرض، لكن السيدة التي تنام على الفراش تقيأت عليها ليلا، وأردفت لي أمي أنها مضطرة أن تعود للبلدة. ستطمئن على أخي الصغير البالغ من العمر خمس سنوات وستعود على أمل أن تجد فراش تنام عليه.

في منتصف اليوم كنت أجلس مع كخه يسألني عن جراحته التي اقتربت. وهل سبعون في المئة نسبة كافية لنجاح العملية أم لا، حينما جاءت شيماء وقالت لي أن أذهب معها للدور الثاني. أنا أعلم ماذا يوجد في الدور الثاني، فهو عبارة عن حجرتان، حجرة للجراحة وحجرة أخرى للإفاقة محاطتان بفراغ بشع، كنت أكره أن أعبر من

الدور الثاني في صعودي اليومي للسلم لما تحمله ذاكرتي، ولكنني كنت مجبرا، كان معي يومها أخي أحمد توأمي فاصطحبني، قالت لي شيماء أنها سمعت من الأطباء أنهم سينزعون الأنبوبتان الصدريتان. حينما سمعت ذلك كنت أشعر بأنني أجري للدور الثاني، كنت سعيدا جدا، يبدو أن الطبيب كان صادقا عندما قال أنني سأمكث في المستشفى لمدة أسبوع واحد فقط، هو كذب بخصوص العملية والجرح لكنه كان صادقا في هذه المسألة بالتحديد.

تركتنا شيماء على الباب فمشينا في الطريق المقفر حتى غرفة الإفاقة، ثم تركني أحمد أمام باب الغرفة، بعد قليل جاء طبيب ووقف أمامي وأمرني أن أخلع ردائي ففعلت، وأن أرفع يدي فوق رأسي ففعلت، ثم قال لي أن أفعل ما يقوله، حينما يقول لي أن لا أتنفس، فلا أتنفس، لا شهيقًا ولا زفيرًا، أكد مرة أخرى أن نزع الأنبوب فيها حياة أو موت فلا تتنفس، كان يتكلم بهدوء شديد كي يتأكد بأنني أسمعه بوضوح، ولما أكدت له بأنني سأفعل بدأ ينزع الشاش والقطن حول الأنبوب الصدري، أمرني بأن لا أنظر فنظرت للسقف، بعد قليل قال لي أن لا أتنفس، إن تنفست ستموت، عدت مرة أخرى للخاطر الذي جعلني أبكي في المرة الأولي، ربما سأموت الآن وحيدا، أخي أحمد في الخارج ولكني أشعر أنه يبعد عني أميالا.

لكن ووسط هذا كله تبين لي مدى هشاشة الحائط الذي يفصل بين الموت والحياة، لا يجب عليك أن تكون مريضا حتى، يكفي أن تتحلى بالشجاعة ثم تقفز في الماء أو تتدلى من سقف الغرفة. إن تنفست الآن سأموت، بهذه البساطة أستطيع أن أقرر أعظم وآخر قرار في حياتي.

أخذ الطبيب وقتا لكي يخرج الأنبوب من صدري فعدت للتنفس من جديد وكرر العملية مرة أخرى، وعندما أنتهي هممت بالنهوض فابتسم الطبيب وقال لي

- مستعجل على ايه؟...

عدت مرة أخرى للجلوس، ثم بيده أحضر منضدة ووضعها بجواره، فرأيت عليها أنبوب جديد وبعض الأدوات الجراحية، عرفت أنه سيضع لي هذا الأنبوب، ومرة أخرى قاتلت شعورا حادا للبكاء، ثم أعاد علي ما قاله عن عدم التنفس وعدم النظر، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سيضع فيها أنبوبا في صدري وأنا واعي.

في البداية شعرت بأصابعه الباردة وهو يتحسس عظام قفصي الصدري، ثم شعرت بنغز ابرة المخدر، لكنني لم أشعر بشئ وهو يفتح بالمشرط جرحا بين العظام، لكني عدت وشعرت باصبعه لما حاول أن يدخله في الجرح بقوة حتى أن جسدي كان يتحرك، عاد وحاول مرة أخرى بعد أن اعتدل في جلسته وأمرني بأن ابقى ثابتا،

أخذ طرف الأنبوب الصدري ووضعه بين طرفي ما يشبه المقص وأدخله في الجرح حتى شعرت كما لو أن طرف الأنبوب صنع فتحة في بالونة منتفخه، فقد شعرت بأن الهواء في صدري يخرج من الفتحة الجديدة برغم أنني لم اكن أتنفس، ورأيت الدم يلون الأنبوب الجديد بالأحمر، ثم أمرني الطبيب بأن أتنفس بعد أن انتهى من تثبيت الأنبوب جيدا.

خرجت لأخي أحمد وأنا أحمل طرفي الجديد، كان وقتها لا زال يعلم بأني سأتخلص نهائيا من الأنبوبان الصدريان وسأخرج قريبا من المستشفي، فلما رأي الباب يفتح ابتسم، لكن لم تدم ابتسامته طويلا حينما رآني بكتفي المتدلي، وأنا أحمل طرفي الجديد، لم يقل شيئا، فقط قام من مكانه وأسندني، سألني إن كنت أريد أن اجلس أم لا فلم أرد. ثم ونحن نخرج عبر المر القفر قال لي متوسلا

- والنبي ما تعيط.. علشان خاطري

ولكني لم أحتمل، صورة محمد المسكين لم تفارق ذهني وقتها، فسمعت صوت أخي وهي يبكي معي.

في طريقي للعنبر رأيت شيماء تنظر لي غير مصدقة، ورأيت أيضا ريهام تجلس في مكانها المعتاد بجوار النافذة. وقتها كان يراودني شعور بأن ريهام ليست سوى شخص صنعته في خيالي، فكنت أخاف

أن أسال أي شخص عنها وخصوصا شيماء.

عدت للعنبر وأنا مازلت أستند على أخي، كنت في حالة إعياء فاستلقيت على الفراش، نمت واستيقظت بعد قليل على صوت الد. إيهاب يقول أنه يجب علي أداء بعض التمارين فمازالت رئتي مليئة بالإفرازات وأنه سيجري "التشفيط" إن لم يجدني اصعد السلالم جريا!.

لم أفعل شيئا من هذا، درجة حرارتي كانت عالية وكنت أعاني إعياء شديد وخدر في أطرافي، كانت شيماء قلقة جدا، وتقول أن تلك علامة سيئة، دخلنا في الليل ولا يوجد أطباء نناديهم، قالت أن الحل الوحيد هو الكمادات. ظل أخي وطلعت طوال الليل يتناوبون فيما بينهم، وكنت أنا أسقط في النوم، أري المقابر التي رأيتها في الحلم الأول ولكنها تبدو مشوشة تلك المرة فأستيقظ بسبب تنفسي البطيء والرعب، ثم ما البث أن أعود مرة أخرى للسقوط في النوم ورؤية الشيء ذاته والاستيقاظ على الإحساس نفسه. كان رعبا حقيقيا حتى أطل الصباح وانخفضت درجة حرارتي وجاء الد. إيهاب.

وضع يده الباردة المبتلة على جبهتي، ثم نظر لنهاية الأنبوب الصدري وقال معاتبا

- أنا مش عاجبني لون المحلول ده.. اعمل مجهود.. والا

بعد أن رحل، قال لي أخي أن الطبيب يقول هذا تخويفا فقط. الغريب أن لا أحد فينا كان يعرف ما هو التشفيط بالضبط. فقط كلمات قليلة قالها علاء محذرا إياي من الموت جعلت من التشفيط هذا شيئا ستحل نهايتي بسببه، وأنا وقتها كنت متأكد بأن نهايتي اقتربت بالفعل ولكن لا أعلم ما هي الطريقة، هل ستكون بسبب التشفيط؟.

حينما أحضرت شيماء الدواء لي سألتها عن التحول المفاجئ للدكتور إيهاب، قالت أنه دائما ما تصبح معاملته مع المريض قاسية بعض الشيء، وحكت لي -بما أننا نتحدث عنه- انها سمعت الدكتور أحمد يعاتب الدكتور إيهاب بسبب تغيير الأنبوب الصدري بدون الرجوع له، كان الدكتور إيهاب غاضبا جدا حتى أنه بعد أن أنتهي من الحديث رمي الهاتف على الأرض فانكسر.

العنبر يبدو حيا وقت الزيارة، يمتلئ بالعائلات التي تأتي لتطمئن، فتسمع الضحكات والتطمينات قبل أن يموت العنبر ليلاً، ففي الليل يصبح العنبر مريضا مثلنا، بل يصبح مبنى المستشفى بالكامل مريضا وواهنا كالنائمين داخله. وأنا كنت انتظر وقت الزيارة لأرى الناس يتحركون، لا أحدا يساعد أحداً، بشر أصحاء يضحكون ويمشون بنشاط ذهابا وجيئة في العنبر.

في وقت الزيارة حضر أبي بطعام أرسلته أمي، بعد أن أكلنا عرفت أن أمي لن تأتي بسبب أخي الصغير، ولاحظ أبي الأنبوب الصدري الجديد فحاول أن يطمئنني، قال أنه تحدث مع الطبيب وقال أنني سأخرج قريبا، كان قد مر علي في المستشفى بعد الجراحة أسبوع وبضع أيام، وأنا كنت مؤمنا بأن كل كلمة قالها الطبيب كانت كذبا، حتى أن القطعة المبتورة من الرئة كانت تملأ برطمانا متوسط الحجم، أكد لي محمد أنه هو من حمل ذلك البرطمان لتحليله في مستشفى آخر.

سألت شيماء عن الدافع الذي يجعل الطبيب يكذب على المريض، قالت أنه هناك نوعان من المرضى، هناك مرضى يأخذون الأخبار برحابة صدر وشجاعة، وهؤلاء لا يخافون شيئا، فيرى الطبيب أنه من الأفضل أن يخبرهم عن وضعهم الصحي بكل صراحة، أما النوع الثاني -أنا واحد منهم- فهم لا يتمتعون بشجاعة كافية، أو أن قلة أعمارهم تجعل الطبيب يطمئنهم كذبا بشان الجراحة والمدة التي سيبقونها في المستشفى. عرفت من شيماء أنني قضيت ست ساعات كاملة في الجراحة وليلتان في غرفة الافاقة، وان جراحتى ليست شيئا بسيطا، وأنني من الممكن أن أبقى هنا لفترة تتجاوز الشهر.

كل ما كنت أصبو إليه هو أن أتنفس بعمق وقت الحاجة، أو أن

اضحك بـصوت عـال، أو أن أميـل علـى الأرض لالتقـاط شـيئا مـا، مـا حصلت عليه في المقابل هو أنبوب صدري لا أستطيع بـسببه أن أتـنفس كما كنت أتـنفس في الـسابق حتـى. معنويـاتي كانـت سـيئة للغايـة، وكنت أشعر بأنه تم النصب علي.

* * *

في اليوم التالي كان الجو هادئا، شيماء أتت بالأدوية وأكدت علـى أن المورفين غير موجود لأنه يُسرق، وبأنني يجب أن أحـاول أن أرفـع كتفي الأيسر، وأن أرتدي جلبابا أبيض لأن هناك تفتيش سيتم. طبعـا لم أرتـدي الجلبـاب الأبـيض المـسمى بـالزى الموحـد، مـا الـداعي مـن ارتدائه أصلا؟، طبعا ظل الجميع في حالة تأهـب، وأتـى ممرضـات لم أكن أراهن من قبل، وظهر الجميـع بمظهـر ملائكـي، ولكـن لم يـأتي أحد.

في الليل كان كخه مريضا جـدا، جـاءت ممرضـة ممتلئـة الجـسد، باردة، تتحدث بصوت عال، قالت أنها ستضع لـه محلـول الجلوكـوز ولكنها ستذهب لتؤدي شيء مـا مهمـا، فقـال طلعـت أنـه سيـساعد، فشرحت له سريعا عن وضع الإبرة وتركيب المحلول وذهبـت، وفعـل طلعت ما علمته له تماما، ولما اطمـئن أن المحلـول يـسير في الأنبـوب الرفيع كما قالت له المرضة ذهب ليتحـدث مـع مينـا. نـام كخـه ولم

يستيقظ إلا على أثر ألم شديد وثقل في يده، حاول أن يرفع يده أمام عينيه فلم يستطع، نظر إلى مكان إبرة الجلوكوز فتفاجأ بحجم يده الضخم، رفع يده في الهواء وهو يصرخ ويسب الجميع.

في اليوم التالي جاءت أمي وحكت لي عن أخي أشرف وأنه يريد أن يراني، كانت تريد أن تأتي به ولكنها خافت عليه من جو المستشفى. ذلك الحديث عن أخي الصغير والرجوع للبيت حمسني قليلا فذهبت لصعود السلالم.

بعد المرة الرابعة جلست بجوار ريهام، سألتها إلى أين ذهبت في الأيام الماضية، فحكت لي عن خطيبها وموعد زواجهما الذي حددته بعد الجراحة مباشرة فكان يجب عليها الخروج لاختبار فستان الزفاف. كانت تبدو هادئة على غير العادة وأقل توترا، قالت لي أن الخروج من المستشفى ساعدها كثيرا، وسألتني إن كنت أستطيع أن اخرج من المستشفى بتلك الحالة فأجبت بلا، وأنني في اللحظة التي ينزعون فيها أطرافي سأخرج لأمشي في الشارع، ضحكت لما قلت أطرافي فضحكت مثلها.

أظن أن ريهام كانت من النوع الثاني، النوع الذي يفضل الطبيب الكذب على المريض بدعوي أن المريض خائف.

حكت لي ريهام عن أنها رأت حلما صعبا لم تستطيع أن تنام بعد

رؤيته، فقلت لها عن أنني أيضا راودني حلما صعبا، ولكني لم أدخل في تفاصيل الحلم، وأكدت لها عن تجربة شخصية أن الأحلام لا تعني شيئا هنا. ثم تركتها وأنا لست مقتنعا بان الأحلام لا تعني شيئا فعلا، لأن الحلم الذي رأيته في ليلة الجراحة مازال يتحكم في حتى الآن.

كانت شيماء في الناحية الأخرى تبكي، عيناها كالدم وتحمل في يدها منديلا ابيض تمسح به أرنبة أنفها الحمراء، لما رأتني جاءت ووقفت أمامي وقالت لي

- محمد مات

محمد المسكين الذي رأيته لمرة واحدة في المستشفي، والذي يشبهني في طرفي الجديد مات، رأيت صورته وهو يصرخ في أمه، وهو يرفع يديه ورأسه لسقف العنبر مرة أخرى. لا أعلم هل كنت حزينا عليه أم على نفسي، فهو بدون شك وبعد ما لاقاه في الفترة الأخيرة فقد ارتاح مما كان فيه، ولكن أظن أنني كنت حزينا على نفسي أكثر. وتلك هي المشكلة في المستشفى، فهنا تبدو الأحاسيس باهته، حتى الضحك والبكاء، ودائما ما تسأل. هل تضحك لأنك سعيد؟ أم لتهون على الآخر؟، هل تبكي لأنك حزين على الآخر أم خوفا على نفسك من أن يصيبك ما أصابه؟.

عدت للعنبر حزينا بشكل باهت، حاولت أمي أن تجعلني آكل ولكنني لم أستطع، فصورة محمد المسكين لم تفارق خيالي، لم يخرجني من حزني غير الدكتور إيهاب الذي وقف غاضبا على باب العنبر. لم يقل غير جملة واحده

- تعال ورايا يلا.. أنا هشفطلك دلوقتي

ذهبت ورائه ولم أقل شيئا، كان منفعلا وتستطيع سماع تنفسه غير المنتظم، دخلت وراءه في غرفة يبدو أنها غرفة للدراسة، فالغرفة مليئة بالكراسي المتراصة بعشوائية وعلى الحائط المقابل مثبت لوحة كبيرة بيضاء للكتابة، ووسط الغرفة رجل أفرغ منتصفها للصلاة، انتظره الدكتور إيهاب حتى انتهي وقال له وهو يشير إلى:

- هنشفلطه

تركني الدكتور إيهاب وذهب، نظر الرجل لي وقال أن اجلس على الكرسي المعدني بجوار الحائط، ظل يرمقني بفضول، كان رجلا يبدو في أوائل الخمسينيات، رمادي الشعر وله لحية خفيفة. لما جاء الدكتور ايهاب حاملا صندوق بلاستيكي مليء بشاش وقطن واشياء أخرى قال له محذرا

- امسكه كويس.. لو فلت هشفطلك إنت

شعرت من خلال هذه الكلمات أن التشفيط شيئا صعبا، يتطلب أن

يمسكني شخص آخر، كنت مفزوعا وجسدي يهتـز، أمرنـي الـدكتور إيهاب بأن اجلس على الكرسي وأضع يدي خلف ظهري ففعلت. وضع الصندوق البلاستكي بجانيه، أخـرج منـه أنبـوب طويـل ووضـع علـى طرفة سائل لزج، أمرني بأن أرفع رأسي قليلا للأعلى وأفـتح فمـي ثـم أُخرج لساني للخارج ففعلت، أخذ قطعة قماش خشنه وأمسك طـرف لساني بها بقوه، وبيده الأخرى أدخل رأس الأنبوب في فتحة أنفي ثم فمي. لما وصل رأس الأنبوب لفمي حدث لي رد فعل كمحاولة التقيـؤ، بسرعة وبدون وعي مني أحنيت رأسي حتى خرج الأنبوب، ثم وبقوة سحبت يدي اليمني ومسحت عيناي من الدموع، فقال الدكتور ايهاب

- ايه ياعم محمد؟.. هشفطلك انت والله

أمسك عم محمد يدي اليمني بقوة هذه المرة ووضعها وراء ظهري، أعاد الدكتور إيهاب وضع المادة الملينة على الأنبـوب، وأمـسك لـساني بالشاش الخشن وأدخل الطرف في فتحـة أنفـي، في هـذه المـرة تقيـأت فعلا فلم يستطع أن يكمل مما جعله يغضب أكثـر، فقـال وهـو يخـرج لعم محمد:

- لازم المريض يكرهك علشان يسمع كلامك

ثم التفت لي حينما خرجت من الباب وقال

- ده مش تـشفيط.. التـشفيط اللـي بجـد هيبقـى آخـر النهـار

علشان هنشفطلك مرتين في اليوم.

لا أعلم من هو الشخص المريض الذي أقنع الدكتور إيهاب بأن الطريقة الوحيدة التي تجعل المريض يفعل ما يؤمر به هو أن يكره طبيبه، كنت غاضبا جدا وشعرت بالإهانة. وكأن آخر شيء كان ينقصني في المستشفى أن أشعر بأنني مهان.

عدت للعنبر ووجهي أحمر من الغضب، كنت أسب بطريقة جنونية، ولما حاولت أمي تهدئتي تركتها وذهبت لأجلس أمام البوابة الرئيسية، لكن وأنا أهبط السلم وجدت الدكتور إيهاب الذي قال لي عندما رآني

- ايوه كده.. برافو عليك

قلت له وأنا أمنع نفسي من سبه

- أنا مبعملش تمارين ..

جلست أمام البوابة الكبيرة أنظر للناس. كنت وبطريقة غريبة أرتاح لمجرد أن أرى الشارع والسيارات والناس، وفكرت في التشفيط، في أي عصر كانت هذه هي الطريقة الوحيدة؟، وفي أي بلد أخرى مازالوا ينتهجوا نفس هذا المنهج في العلاج؟، شعرت بأنني مريض في العصور الوسطي، الجدير بالذكر أنني عرفت فيما بعد أن هناك جهازا يوضع على الفتحة الأخرى من الصندوق البلاستيكي في آخر

الأنبوب الصدري يؤدي نفس عمل التشفيط بنتائج أفضل، فقط يجلس المريض على كرسي ويتم تركيب الجهاز لمدة معينه ولا حاجة لكل تلك المهانة أو صعود وهبوط السلم يوميا وطرق العصور الوسطي هذه.

عدت مرة أخرى للعنبر عن طريق الاسانسير، كنت وأنا في انتظاره أتمنى أن يراني الدكتور أيهاب، أو أن يراني وأنا أخرج منه. كان الجو كئيبا أكثر من أي وقت مضى، كنت في حالة نفسيه يرثى لها، لا أستطيع حتى أن أنظر للممرضات أو الأطباء.

وجدت طلعت ومحمد يجلسان مع شخص غريب، كان واضح أنه مريض، رجل أصلع رفيع جدا تبرز عظامه بشكل مخيف، وكانت وجنتاه غائرتان ورقبته منتفخة، عرفاني عليه فقال أنه ستجرى له جراحة الغدد، ولكنه هنا لأنه يعاني من السكر، وحينما تستقر الحالة سيجرون له الجراحة فورا، كان من الوايلي فسموه محمد الوايلي، ودائما ما كنت أراه معهم.

كان يتحدث معهم عن ماضيه، وعن أنه كان في يوما ما فتوة الوايلي، والجميع هناك كان يخاف منه، كان يتحدث عن الماضي وكأنه فقد ابن من أبنائه، ولما سأله محمد عن الذي جرى له قال:

- الخمرة والسجاير

ونحن نتحدث جاء مينا وقال أنه سيغادر، كان سعيدا جدا كأنه

سيغادر السجن، صافحنا جميعا وتمنى لي أن أخرج من المستشفى قريبا. خرج أيضا يومها الرجل الذي أتي مع زوجته وظنها طلعت ابنته، ولم يبقى في العنبر غير كخه والرجل السبعيني وأنا.

في الليل أتي الدكتور إيهاب وطبيبة أخرى وقال لي:

- تعال يلا

كنت أعرف ماذا سيفعل، وأن هذه المرة ليست كالسابقة، لكني لا أعلم إلى أي درجة ستصل المهانة هذه المرة. لما وصلت للغرفة جلست على نفس الكرسي، لم يكن هناك أحد ليمسك يداي خلف ظهري، فقال لي:

- إن إيدك لمست ايدي هشفطلك مرتين

ثم مال على الطبيبة الجديدة وقال وهو يبتسم

- لازم المريض يخاف منك علشان يسمع كلامك

وضعت يدي على فخذي، وهو أمسك لساني بالشاش الخشن ووضع على مقدمة الأنبوب مادة ملينه وأدخلها في فتحة أنفي، شعرت بالأنبوب وهو يتحرك حتى يصل إلى حلقي فحاولت أن أتقيء، حاول مجددا فدخل الأنبوب في حلقي ثم في صدري فقال

- اسمك ايه؟

حاولت أن أتحدث ولكني لم أستطع، ارتعبت، حاولت مرة أخرى

أن أتحدث أو أصرخ ولكني لم أستطيع، أمرني بأن أسعل، كان العرق بتفصد ويتجمع على وجهي تماما كالحلم، كنت أريد أن أنتهي من هذه المذلة فسعلت وسعلت، كان يحرك الأنبوب للأمام والخلف فيزيد الألم في أنفي وحلقي، وشعرت بألم كتفي كأن الجرح سيُفتح وتخرج منه رئتي.

بعد أن انتهي أزال الأنبوب فهويت برأسي للأمام، ورأيت الطبيبة الجديد تجلس على كرسي وتضع يدها على وجهها وتبكي فيهتز جسدها كله، اما الد. إيهاب فكان فخورا كرجل كهف قتل ماموثا وحده.

عدت للعنبر وأنا منهك. في تلك اللحظة من الضعف قلت لأمي أنني لن أخرج من هنا، كنت على وشك أن أحكي لها كل شيء، عن ما رأيته في الحلم، ولكن النظرة على وجهها منعتني فنمت.

استيقظت في اليوم التالي على ألم في لساني، لم أستطع أن آكل أو أشرب اي شيء ساخن، كان عذابا حقيقيا مضافا على ما كنت فيه، تناولت الإفطار ببطء شديد قبل أن يأتي الدكتور إيهاب للتشفيط

في الغرفة ذاتها، وعلى الكرسي نفسه، جلست. ولكن تلك المرة ستجريها لي طبيبة امتياز أسمها لمياء، يدها المرتعشة أقلقتني، كنت كفأر تجارب. -أكثر من مرة كان الدكتور إيهاب يطلق علينا أنا وعلاء

لقب فئران التجارب-، كانت الدكتورة لمياء تفعل ما يأمرها الدكتور إيهاب بالضبط، تضع ملين على الأنبوب وتمسك لساني بالشاش وتحاول أن تدخل الطرف في فتحة أنفي، لم تنجح لأكثر من مرة، فكانت دائما ما تدخل الأنبوب بزاوية خاطئة فأتقيأ، وعندما نجحت في المرة الأخيرة، وقبل أن تبدأ بتحريك الأنبوب سألني الدكتور إيهاب

- اسمك ايه يلا؟

قلت وأنا متفاجئ من صوتي

- علاء

- البتاع ده دخل فين؟

قالها الدكتور إيهاب بسخرية، فعرفت الدكتورة لمياء أن الأنبوب في مكان خاطئ فارتعبت، وبسرعة سحبت الأنبوب فبدأت أمسح عرقي ودموعي، قال لها الدكتور إيهاب أنه هو من سيجريها هذه المرة، وفعلا نجح في أول مرة وأجرى لي التشفيط، ولم ينسى أن يذكرني بان هناك مرة أخرى في الليل، وأنه يريد أن يراني أكثر على السلالم.

بعد أن عدت للعنبر أسب وألعن في سري، جاءت الدكتورة لمياء وقالت لي أن أتبعها، مشيت وراءها حتى ذهبنا للغرفة إياها،

جلست على الكرسي فأحضرت علبة بلاستيكية وقالت أنها ستنزع الأنبوب الصدري، ووجدت على المنضدة بجواري أنبوبان صدريان فعرفت أن أطرافي ستزيد، كنت في حالة بائسة ولم أعد أكترث، وهي ببطء بدأت تنزع الشاش من جانبي الأيسر.

كان طلعت يقف بجواري حينما نزعت الأنبوب من صدري، لكن شيئا ما خاطئ حدث، رأيت جسدها وهو يهتز، فقد انفلت الأنبوب الصدري ولم يكن معها شيء لتقطيب الجرح، فوضعت يدها عليه كمن تضع يدها على مكان للتسريب وقالت لطلعت أن يضع يده مكان يدها وأن لا يحرك يده من على الجرح لحين عودتها، فعل طلعت ما قالت ولكنها قبل أن تخرج من الباب قالت

- لو شيلت ايدك من على الجرح هيموت

أنا رأيت وجه طلعت وهو يتحول للأحمر، نظرة عينيه والخوف فيهما لا يوصف، وضع يده بقوة أكثر فآلمني، وأنا من داخلي كنت أتمنى أن يرفع يده.

بعد مرور بعض الوقت مر على طلعت كأنه دهر، جاءت بصندوق بلاستيكي، قالت أن هذا ليس وقت وضع مخدر موضعي ولذلك ستضطر لخياطة الجرح بدونه، أعطاني طلعت يده لأقبض عليها لحين الانتهاء من تقطيب الجرح.

بعد أن انتهت وضعت لـي انبوبـا صـدريا أسـفل جـانبي الأيـسر، وعدت مرة أخرى للعنبر، لكني وأثناء مشي كنت أشعر بألم رهيـب، قلت لطلعت فقال أن ربما هذا شيء طبيعـي كارتفـاع درجـة الحـرارة كما حدث معي في السابق.

منعني الألم من النوم أو الجلوس أو المشي، كان أسوء يوم مر علـي في المستـشفي، ذهـب طلعـت لكـي يـسأل علـى الـدكتور إيهـاب أو أي طبيب آخر فلم يجد أحدا، حاول أن يجد حقن مورفين فلم يوافق احد على إعطاءه، كـان مـن المفـترض أن يكـون لـي حقنتـان يوميـا، ولكـن بدعوى أنـه يسبب الإدمـان فكـانوا يمنعـوه عنـا، دائمـا مـا قالـت لـي شيماء أنـه يتم سرقة بهذه الطريقة.

جاء موعد التشفيط فكدت أبكي، الألم في صـدري رهيـب، وأشـعر بأن كتفي سينخلع مني حرفيا، قلت للدكتور إيهاب فأعطـاني حقنـه مورفين، وذهبت بعدها لغرفة التشفيط، بسرعة جلست على الكرسي وهو فعل ما تدرب عليه فلم يأخذ منه وقتا طويلا، لكن عندما قال لي أن أسعل لم أستطع، قال لي مـرة أخـرى بـصوت أعلـي، رفعـت يـدي اليمني لأضعها على كتفي الأيسر فحـاول منعـي، فـضربته في ذراعـه الأيسر، فلم أكن أستطيع التحدث، وفعلا تركني أضع يدي على كتفـي الأيسر وبدأت أسعل وأسعل وأسعل.

بعد أن انتهي ذهبت محمولا للفراش، حاولت طوال الليل أن أنام ولكني لم أستطع، فكنت أشعر بـألم غريـب في صـدري كلمـا وقفـت أو مشيت أو نمت.

في صباح اليوم التالي ذهبت لإجراء أشعة علـى صـدري، أسـندني طلعت من الدور السابع للدور الأول تحت استهجان المرضة، ثم صعد بي إلى الدور السابع مرة أخرى.

كنت منهكا وغائب عن الوعي إلى حـد مـا حينمـا جـاءت المرضـة لتأخذني لعمل أشعة مرة أخرى، لم يكـن طلعـت موجـودا هـذه المـرة فذهبت أنا وهي فقط، وكنت كلما أقف لأتـنفس قلـيلا كانـت تـأمرني بأن أجري، وأن هذه فرصة جيدة لعمل التمارين، ولما وصـلنا تـبين أن المكان مغلق، فذهبنا لمكان آخر، فـصعدت للـدور الثالـث واتجهنـا إلى غرفة أكبر للأشعة، بعد أن انتهينا قلت لهـا بـأنني لم أعـد أحتمـل، وأن كتفي يؤلمني فلم ترضي، قالت أن الأطباء يريدون هـذه الأشـعة في أسرع وقت لأنـهم يشكون بأن شيئا ما خاطي، أنا كنـت متأكـدا مـن أن هناك شيئا ما خاطئ، وإلا ما هو سبب هذا الألم الرهيـب منـذ الليلـة الماضية؟.

عدت مرة أخرى للدور السابع، جلست أمي بجواري تمـسح عـني العرق وأنا شبه غائب عن الوعي، بعد قليل جاءت المرضة وقالـت أن

الأطباء يريدوني، مشيت وراءها إلى غرفة الأطباء، كان هناك عدة أطباء بجوار الدكتورة لمياء التي تجلس وتبكي، تبين لي يومها أن الطبيبة أخطأت في تقدير المسافة في الأنبوب الصدري الموجود تحت إبطي مباشرة وأنها أدخلت الأنبوب أكثر من اللازم حتى انحنى داخل صدري. تأسفوا لي جميعا على هذا الخطأ وبدأ طبيب منهم بنزع الأنبوب ووضعه من جديد.

وأنا عائد للعنبر وجدت كخه على عكازين يقاتل لكي يمشي، حتى الرجل السبعيني كان يجلس على كرسي متحرك يدفعه ابنه حمزة، لما سألت طلعت قال أن المرضة لم تأتي لتعطيهم حقنة الأنسولين فذهبا هم لها. لما عاد كخه لم يسكت طبعا، ظل طوال اليوم يشتكي ويسب الجميع، حتى وزير الصحة نفسه.

في هذا اليوم أتي لنا ضيف جديد، رجل طويل القامة، يرتدي جلباب وطاقية بيضاوان مما يزيد من سمار وجهه النحيف، حينما دخل العنبر وقف أمام الباب ينظر للجميع بابتسامة واسعة، ثم مر علينا ليلقى السلام والدعوات فلاحظت صرصارا كبير الحجم يمشي على جلبابه، ولما قلت له لم يبد عليه اي اهتمام، ثم سألني عن الأنبوبان الصدريان، فحكيت له، فقال أنه يشتكي من ألم ما في أعلى ظهره وقال أنه ربما يجروا له جراحة في الرئة، لم أقل له شيئا غير

تمنياتي له بالشفاء قبل أن يذهب إلى السرير الذي اختاره لينام.

دخل الدكتور إيهاب للعنبر فظننت أنه ميعاد التشفيط، كنت وقتها لا أستطيع رفع لساني ليلمس سقف فمي، كان ملتهبا من كثرة الضغط عليه بالشاش الخشن، لكن الدكتور إيهاب أخذني لغرفة التمريض وقابلت نفس السيدة التي قابلتها قبل الجراحة

كالمرة السابقة سألتني نفس الأسئلة، وبرغم أنها رأتني أحمل أنبوب صدريا، وبرغم أنه مكتوب في الملف الخاص بي كل شيء سألني ببرود:

- عملت عمليات قبل كده؟

- لا

كان ردي سريعا وباردا، وهي لم يبدر منها ردة فعل حتى أنها لم تلتفت لي، ظلت تنظر للملف ثم قالت أن أخرج وأنادي لزميلي، طبعا كانت تقصد علاء الذي وجدته يقف على الباب في الخارج لا يعرف سبب إحضاره هنا مثلي.

سألت الطبيب قال أنه سيتم إجراء جراحة لنا غدا للتأكد من أن الجراحة ناجحة، ثم طلب مني أن أنتظر في غرفة التشفيط، لكني ذهبت لأجلس مع ريهام.

كانت كعادتها تجلس وتضم ركبتيها إلى صدرها، لكنها هذه المرة

تبدو مختلفة، في المرات السابقة التي كنت أراها فيها، كنت أشعر بمدى التوتر الظاهر على وجهها، نظراتها التي تتغير حينما تنظر داخل المستشفى، وحركة يديها حينما تضمهما إلى بعضهما البعض، لكنها في هذه المرة تبدو أكثر ارتياحا، ولما سألتها عن السبب، أجابت بأنها كانت قلقة على مستقبلها مع زوجها، شرحت لي أن الجراحة في القلب، وأنها كانت خائفة من منظر الجرح في صدرها، والأكثر أهمية من ذلك، أن تؤثر حالة القلب أثناء الحمل، لكن الطبيب طمأنها بأن الجرح لن يظهر وتستطيع أن تمارس حياتها بشكل عادي، وأن خطيبها طمئنها وساندها. كانت تبدو سعيدة ولا تعرف بأن الطبيب ربما كان يكذب عليها.

تركتها تنظر للنافذة كعادتها وذهبت لغرفة التشفيط، حينما دخلت من الباب شاهدت علاء أثناء التشفيط له، كان يجلس على كرسي والدكتور إيهاب يقبض على لسانه بقطعة شاش. ظهره منحني للأمام والعرق يلمع على وجهه وأنفه، يأمره الطبيب بالسعال فيسعل، يتوقف الطبيب عن تحريك الأنبوب داخل أنفه ويأمره بأن يرتاح قليلا فيهز رأسه بقوه فيفهم الطبيب انه يرفض، فيبدأ الدكتور إيهاب بتحريك الأنبوب مرة أخرى، فيبدأ علاء في السعال من جديد. ولما سألته لماذا لا يرتاح أثناء التشفيط رد بلهجة صعيديه:

- ببجى عايز اخلص

بعد أن تم التشفيط لي عدت للعنبر، جلست على الكرسي لأرتاح، كان وقت الزيارة أتي فرأيت أبي يتحدث مع الدكتور إيهاب. قال لي بعدها أن الجراحة عادية ولن تستغرق أكثر من ربع ساعة، ضحكت وقتها ولم أقل السبب.

سألته يومها عن أخي أشرف، فكنت أريده أن يأتي لزيارتي، ولكن أبي لم يرضى، ولما ألححت سألنا الطبيب الذي رفض حينما عرف أنه يبلغ من العمر خمس سنوات، وقال أنني بعد الجراحة غدا، أستطيع أن أترك المستشفى.

طبعا لم أصدقه، فقد كنت أعاني من عدم الثقة في أي طبيب. ولم أكن أصدق أي شيء يقال لي في تلك الفترة من أي شخص.

في اليوم التالي جلست على الفراش المهترئ في غرفة الإفاقة مع علاء، كان صامتا لا يعرف لماذا سيجرون لنا جراحة الآن، كنت أنا متشائما جدا ولكني لم أتحدث معه في أي شيء، كنت أشعر بأن الأنبوب الصدري الذي انحنى داخلي ربما احدث اثارا جانبية تستدعي جراحة، وبالتالي أياما أطول في المستشفى، ولكن لم تكن عندي أدني فكره لماذا علاء هو الآخر سيخضع لجراحة.

وبينما أنا جالس بجوار علاء صامتين في غرفة الإفاقة، كانت

تجلس بجوارنا سيدة تحمل رضيعة بين يديها، تبين أن الرضيعة خرجت منذ مدة قصيرة من جراحة، سألت الأم عن سبب نوم الطفلة بهذا الشكل، فطمأنها الطبيب بأن التخدير هو السبب، عادت مرة أخرى وأعربت عن قلقها لأنها لا تتحرك، كانت الأم على وشك البكاء، كان يخالجها قلق حقيقي أن تكون البنت قد ماتت، الطبيب فهم هذا ثم ذهب نحوها مباشرة ووضع يده على عظمة أنف الرضيعة وضغط قليلا عليها فتحركت ذراعي الطفلة، ابتسمت الأم في ارتياح وبدأت في البكاء بصمت.

قلق الأم على موت طفلتها أعاد لي تفاصيل الحلم مرة أخرى، كنت أظن أنني لم أعد أكترث لأي شيء. لم يعد أي شيء له قيمة بالنسبة لي. سواء بقيت في المستشفى أو خرجت منها، مت أو بقيت حيا، كل هذا لا يهم. ما كان يهم هو أن لا أتألم كمحمد المسكين. لكنني حينما ذهب لغرفة الجراحة، عرفت أنها جراحة ذات تخدير كلي، وعرفت أنني سأعود لأغرق في الظلام، وسأعود للبكاء مرة أخرى، ولن أعرف -كالمرة السابقة تماما- هل أبكي لحزني لعدم موتي أم أبكي لفرحتي لأنني سأرى وجه عائلتي مرة أخرى.

أفقت بسهولة هذه المرة، وجدت علاء مستلقي على الفراش المقابل لي، يستيقظ وينظر ناحيتي ثم يعود ليغرق في الظلام مرة أخرى. بعد

قليل جاءت شيماء، وساعدتني على الوقوف فلاحظت أنهم أزالوا أنبوبًا صدريًا وأضافوا آخر.

أحضرت شيماء كرسي متحرك وحيد وقالت أنها لم تجد غيره وأمرتنا بأن نذهب لإجراء أشعة الآن، كنت أعاني من دوار خفيف لكن علاء لم يستطع الوقوف فاستخدم الكرسي المتحرك، وأنا استندت على الجانب الأيسر منه.

بعد أن انتهيت من عمل الأشعة عدت مرة أخرى للعنبر، كان الدكتور أحمد في انتظاري مع مجموعة أخرى من الأطباء. قال لي أنني سأخرج من المستشفى قريبا، وأنهم سينزعون عني الأنبوبان الصدريان هذا الأسبوع، وأستطيع بعدها أن أترك المستشفى، وقبل أن يذهب طلب من الدكتور إيهاب أن يحل بعض الغرز بعد أن رأى الجرح وذهب.

بعد أن انتهي الد. إيهاب من حل بعض الغرز ترك الجرح غير مغطي، مما جعلني اذهب سريعا للحمام لأراه، كان الجرح كما رأيت في السابق يبدأ من منتصف صدري الأيسر ويمتد حتى منتصف ظهري، كان منظره بشعا جدا، تاكدت أن هذا الجرح سيظل معي للأبد، ذكري لهذه الأيام منقوشة علي جسدي ولن أستطيع أن أزيله أبدا، لاحظت أيضا أن هناك فراغ بسيط بين ضلوعي، أو أن الضلع

غائر قليلا للداخل مما يجعلني أستطيع أن أرى أثر نبضات قلبي بوضوح.

في أيامي الأخيرة بدأت أنسي الحلم، برغم التشفيط الذي لم ينتهي، والأنبوبان الصدريان مازالا ملتصقان في صدري، لكنني أشعر بأني سأخرج قريبا، أحلم باليوم الذي سأمشي فيه تحت الشمس، كنت في هذه الفترة أذهب لأجلس أمام البوابة الكبيرة كثيرا، أنظر للناس والشارع وأصبر نفسي ليوم الخروج.

حينما عدت للعنبر جاءت لي الد. لمياء وقالت أن هذا آخر يوم لي مع التشفيط ، فقلت لها أن تحاول أن تجعلها غير مهينة هذه المرة، واضطررت أن أشرح بعد أن سألتني عن استخدامي لكلمة مهين بدلا من متعب، لم يكن عندها فكرة عن ما هو شعور المريض الذي يتم التشفيط له، فبرغم هيئته المزرية، وبرغم بكائها الشديد حينما رأتني أول مرة، لم تشعر بكم المهانة التي يمتلئ بها المريض. لكنها شعرت بأن هذا الفعل مؤلم فقط.

بعد أن انتهيت من التشفيط، عادت معي للعنبر وحلت الغرز الباقية، وقتها لم أعد أرى الد. إيهاب كثيرا، مما أراحني جدا. الد. إيهاب كان يتعامل مع المرضي بشكل غريب، فقد تغيرت معاملته معي في اللحظة التي أصبحت فيها مريضا، فكان يبذل مجهودا غريبا

لكي أكرهه، وبالتالي -حسب فلسفته التي تعلمها- سأتبع ما يقوله، ولكن بالرغم من ذلك، لم أكن أفعل ما يقوله عندا في بعض الأحيان، وفي بعض الأحيان الأخرى كنت لا أفعلها ليقيني بأنني لن أنجو.

الآن إحساسي بعدم النجاة أصبح ماضيا، فحالتي تتحسن ويبدو ان الصعب قد انتهي، لكنني لم أكن اعرف كيف أرد على أسئلة الرجل صاحب الجلباب الأبيض الذي سيخضع لنفس جراحتي، لم أكن أعلم ماذا قال له الطبيب، وما هو نوعه كمريض، هل هو يخاف ويجب علي أن أكذب؟، أم هو سيستطيع التعامل مع ما سأحكيه؟، لكني فضلت أن احكي له الحقيقة، فهو قد شاهدني أنا وعلاء نعاني في كل خطوة نخطوها في المستشفي، فقلت له أن الجراحة ليست سهلة، وأنني لا أعرف ما هو حجم الجزء الذي سيستأصلونه من الرئة، لكنني أعرف جيدا حجم الجرح وأنه ليس صغيرا أبدا، وسيظل ملتصق بجلده للأبد، أما عن التشفيط فهو متعب ولكن الأكثر من ذلك مهين، كصفعة رعديد أمام حشد من الناس.

أما عن الأحلام فلا أعلم، فهي تأتي في أوقات حرجة، لكن لا تخاف، إن رزيت بحلم مرعب فلا تفكر فيه كثيرا، فمعظم الأحلام ليس لها قيمة هنا.

أخذتني الد. لمياء إلى غرفة العمليات في الدور الثاني، قالت لي

أنهم سينزعون الأنبوب الصدري القديم، وسيبقون على الأنبوب الصدري الجديد إلى نهاية الأسبوع، وعندما دخلت لغرفة الإفاقة، وجدت الد. إيهاب يجلس مع بعض الأطباء والممرضات بجوار الفراش، وقبل أن أميز الشخص النائم قال لي الد. إيهاب

- متبصش على اللي نايمه علشان بتتكسف

بدون وعي نظرت لها، كانت ريهام نائمة على الفراش، حركت رأسها ناحيتي، كانت مغطاة بالكامل ما عدا وجهها، ومن خلال حَلقها يدخل أنبوب فلا تستطيع التحدث، لم أكن أعلم منذ متى وهي على هذه الحالة وكم ستبقى، لكني متأكد من أنني رأيت دموع تهبط من عينيها وهي تنظر لي. على الأقل لم تكن ريهام من صنع خيالي، فكانت فتاة حقيقية ضعيفة القلب فعلا، وبرغم ما قاله الطبيب عن عدم النظر إليها، لم أستطع أن أبعد عيني.

نزع الطبيب عني الأنبوب الصدري ورجعت مرة أخرى إلى العنبر وأنا أفكر كيف ستستطيع ريهام احتمال هذا الوضع، فأنا أعلم كيف تشعر حينما تكون هكذا ولا تستطيع أن تتحدث، وبرغم أنني بقيت يومان بعد هذا اليوم إلا أنني لم أراها منذ هذه اللحظة ولا أعرف ماذا واجهت بعد ذلك.

* * *

جلست في العنبر أنظر للرجل صاحب الجلباب الأبيض لأعرف كيف يبدو بعد أن حكيت له، لكنه لم يبدو عليه الخوف كما كنت أظن، فكان هادئا يوزع الابتسامات على الجميع.

لما تأكد لنا أنني سأترك المستشفى بعد يومان، عادت أمي للبلدة مرة أخرى، ولم يبقى معي غير أخي أحمد وطلعت، وكان محمد يأتي في وقت الزيارة ليطمئن علينا، أما أنا فكنت أنتظر اليوم الذي سيأتي لينزعوا عني الأنبوب الأخير لكي أحاول أن آخذ نفسا عميقا بدون أن أشعر بالسائل يتحرك داخل صدري، او أن أضحك بقوه، كنت متفائلا وأعرف أنني لن أشكو من هذا السائل مرة أخرى، لكن كانت هناك بالمقابل أشياء اشتكي منها الآن، كحجم الجرح أو جانبي الأيسر المليء بالندوب، وتلك البقعة تحت صدري الأيسر مباشرة التي أشعر دائما بألم خفيف حينما يلمسها أي شيء حتى الملابس، لكن كل هذا يُحتمل من أجل تنفسا طبيعيا.

في يوم خروجي نزعوا عني طرفي الأخير في غرفة التشفيط، وعدت مرة أخرى للعنبر لألقي السلام على الجميع، وتمنيت لهم أن يخرجوا قريبا ولا يعودوا أبدا ثم تركت المستشفي وأنا لا أنظر ورائي.

خرجت للشارع من البوابة الرئيسية على قدمي. كان الجو مشرقا

فمشيت تحت أشعة الشمس، وتنفست بسهولة وعمق بدون حذر، ولم أشعر بالسعادة كما شعرت بها في هذا اليوم، فقد نسيت الحلم في تلك الأيام كأنني لم أراه، وحاولت أن أنسي كل شيء حدث لي، لكن الندوب في جسدي تذكرني دائما.

لم يبقى غير أن أذكر أنه بعد أن خرجت من المستشفى بثلاثة أشهر، قد توفي أخي أشرف الصغير في حادث سيارة، وكان يبلغ من العمر وقتها خمس سنوات. وقد ظن بعض الناس بأنني المقصود من الخبر، وهذا راجع لأنني لم يفت علي وقت طويل منذ خرجت من المستشفى.

لا أعلم تفسير الحلم، ولا أعلم لماذا حلمت به في تلك الليلة بالتحديد؟، ولا أعلم هل هناك صلة بين وفاة أخي والحلم، أم أنها مجرد صدف؟، الذي أعرفه أنني كنت قريبا من الموت في تلك الفترة، وأن الحلم ووفاة أخي والمستشفى يربطهم شيء ما، واعرف أن الذي عايشته سيظل في ذاكرتي للأبد.

الفهرس

نزعت الأنبوب من صدري، لكن شيء ما خاطئ حدث!..

رأيت جسدها وهو يهتز، فقد انفلت الأنبوب الصدري ولم يكن معها شيء لتقطيب الجرح، فوضعت يدها عليه.. كمن تضع يدها على مكان للتسريب!.. وقالت لـ "طلعت" أن يضع يده مكان يدها وألا يحركها عن الجرح لحين عودتها، ففعل ما قالت..

ولكنها قبل أن تخرج من الباب قالت:

- لو شيلت ايدك من على الجرح هيموت.

رأيت وجه "طلعت" وهو يتحول للأحمر.. نظرة عينيه والخوف فيهما لا يوصف.. وضع يده بقوة أكثر فآلمني، وكنت أتمنى بسري أن يرفع يده.

بعد مرور بعض الوقت - مرَ على "طلعت" كأنه دهر- جاءت بصندوق بلاستيكي، قائلة أن هذا ليس وقت وضع مخدر موضعي، ولذلك ستضطر لخياطة الجرح بدونه..!...

للنشر والتوزيع